نزار يوسف

المسيح المهموم

مجموعة قصصية

نزار يوسف

المسيح المهموم

مجموعة قصصية

جميع الحقوق محفظة للمؤلف

صفحة المؤلف على الفيسبوك
www.facebook.com/nizary3

المحتوى

كبير الصقور ٤

العنبر ٢١

حرب التمرة و الجمرة .. ٣٦

المسيح المهموم ٥٧

المسرح ٧١

ماء .. ماء ٩٤

المنبر ١٠٣

الخروف ١٢١

المكتبة ١٣١

هنا الحقيقة ١٤٨

كبير الصقور

أطلق جناحيه للريح بقوة .. متجهاً بنظره إلى السماء الممتدة أمامه على مد للبصر لا نهاية له.. و بالرغم من اعتداده و فخره بقوة نظره أكادّ و تميْزه ما أشكل عليه من تفاصيل الأرض الصغيرة و هو في علوه الشاهق ، إلا أنه كان يرى في السماء غموضاً مريباً له ، يشده نحو المجهول .

في موقعه الشامخ بالأعالي ، كان يراقب الأرض الممتدة أمامه بشعور من القوة و الزهو مع مزيج من نكهة السيطرة و السيادة ، لكن ما أن يشيح بنظره نحو الأعالي إلى السماء ، حتى يصاب بلوثة عجز و ضعف مع مزيج من المرارة و الألم .. هو قاهر الأرض من علّ لكنه قاصر السماء من دون .. كان يرى من منظور نظره و بصيرته ، أن للسماء سقف كما هي الأرض لها حد و مستوى . حاول ذات مرة أن يطير إلى الأعلى الأعلى علّه يطال سقف السماء أو يبلغ الأسباب ، لكنه ما أفلح في

بلوغ المرام و لا وصل إلى الأعتاب . و ما كان المآل إلا أن تهاوى متهالك الأعضاء متشنج الأوصال .

الأرض و فرائسها كانت بالنسبة إليه وطراً يقضيه بمتعة و تلذذ يُشبع فيه غريزتين في آن معاً .. الجوع الجسدي العضوي ، و هو ما كانت تسدّه الفرائس التي كان ينقض عليها من علوه الشاهق بسرعة البرق . و غريزة ممارسة السلطة و التسلط بأبشع أنواعها و صورها ، و هو ما كانت تسده عملية التصيد و القتل و كيفية تنفيذها .. الأرض كانت تشعره بسطوة المُلْكْ و اكتمال النفس . بينما كانت السماء بالنسبة إليه ، كعب أخيل .. كأنها صورة من صور المستحيل أو صورة من صور العجز و النقص و القهر . الأرض كانت تمنحه ميزة النظر إلى السماء و التأمل فيها ، لكن عندما يكون في السماء لا تمنحه تلك الأخيرة إلا أن يكون مطأطأ إلى الأرض ناظراً إليها من عل .

بعد صولات و جولات عدة ، ذبُل فيها الأمل و خاب الرجاء ، أدرك أنه ملك السماء لكن ليس على السماء بل على الأرض و بصحيح العبارة ملك من السماء على الأرض .

هدأ روعه و خيمت سكينته عليه و أصبح أكثر من أي وقت مضى ، ملازماً لعرشه المتموضع على أعلى صخرة في أعلى قمة في سفح كبير شديد الاخدار ، شكّلَ مملكة الجوارح المهيمنة على ماجاورها من أمكنة .. جواً و بحراً .

مراراً ما كان يخالجه شعور بالاعتزاز و الفخر و شيء من طمأنينة و هو جالس بهدوء على كرسيه الصخري متذكراً الحادثة التي أوصلته إلى عرش مملكة الجوارح و أودت في الوقت عينه بمنافسه الآخر .. الملك السابق .. منفياً مقصياً إلى أرض الله الواسعة . كانت صراع شرس دامٍ ، لكنه لم يستمر لأكثر من ساعة حُسم فيها الأمر الذي فيه الطرفان يستفتيان .. صراع ظهرت فيه كل وجوه العنف و اللؤم و الدموية ، كيف لا و هو صراع حياة أو موت أو أقرب إليه من أي صراع آخر .

أحياناً .. كانت تمر بخاطره أفكار عن الصراع المصيري القادم إليه لا محالة مع خصم المستقبل و الذي على ما يبدو سيلقى هو على يديه ما لقيه الملك السابق منه هو نفسه . بسرعة البرق كان يشيح بنظره إلى أفق البراري الممتد أمامه أو إلى السماء ذات المجهول العصي المستعصي عليه ، ما كان يتيح له الهروب المؤقت من هذه الحالة ذات الوضع المؤرق المزعج الذي يمثل له حالة حكاك رهيبة ، فما يفتأ يهرش رقبته بمخلبه . فيشعر بارتياح و قد فارقته تلك الحالة المزعجة ذات الأفكار الجهنمية .

تلك الأفكار نادراً ما كانت تنتابه و إذا ما تم ذلك و حصل ، ففي فترات متباعدة يستعمل حينها النظر إلى الفيافي في الفقار و الأعالي في السماء .

ذات يوم ، ساقه ذكاؤه إلى أن تلك الحالة تأتيه فقط حينما يتذكر ما فعله بالزعيم السابق و استولى هو على رياسة المملكة ، كأنها حالة منطقية عقلانية تمثل مترادفة فكرية و مصفوفة رياضية . كأنها سيرورة تاريخية أدركها بطريقة ما و عرف بوجودها .. أنه لا شيء يبقى على حاله ، وكما تدين تدان .

على إنه و في الآونة الأخيرة ، بدأت تتقارب فترات هذه الحالة في تزايد مطرد ، ما شكّلَ لديه حالة عصابية و توتر قلِق لم تعد تنفعه فيه لا أرض و لا سماء . و أكثر ما أزعجه فيما وراء ذلك من أسباب ، هو تعالي أصوات و صياح رعيته من الصقور و الجوارح التابعة لسلطانه ، من نقاشات و ثرثرات بريئة فيما بينها ، ما أزعج صفوة هدوءه و أرسل إشارة سيميائية بأن ذلك انفلاش غير محمود العواقب و يسوق فيما يسوقه إلى بروز عوامل التمرد و الشقاق في المستقبل القريب الآجل . أُضيفَ إلى ذلك تزايد الفوضى العشوائية في حركات بعض الصقور و بروز عوامل القوة لدى بعضها .

على أن ما زاد الطين بلة و لُزوجة و دبق لا يحتمل وأعطى إشارة نذير بالخطر الداهم .. أن بعض الصقور المراهقة و المتفلتة من عقالها ، و التي تطير أحياناً إلى مسافات بعيدة و تعلو في طيرانها علواً كبيراً ، كانت عند عودتها تتجاذب أطراف الحديث فيما بينها عما رأت و سمعت عما لا عين رأت و لا أذن سمعت . و كان أخطر ما سمعته أذني الصقر

الملك المرهفتي الحدة و الالتقاط عبارات مثل .. التغيير .. الإصلاح .. التطوير .. الحرية .. الانفتاح الذاتي .. القبول بالآخر . و ذلك ما كان آخر شيء يمكن القبول به أو التسامح فيه .

فكر الصقر الملك .. ثم فكر و فكر .. إن أراد إصدار فرمانات تمنع الطيران و التحليق لمسافات بعيدة ، و تمنع الكلام و النقاش ، لربما خرج عليه من يطلب النزال و القتال و المبارزة ، شأنه شأن الحوادث السابقة المتعارف عليها بين بني البشر أو بني الحيوان . فكر في نفسه جيداً .. الأمر يحتاج إلى قرار هادئ متزن ، لا يثير الشبهات و لا يوقظ الغرائز الكوامن في النفوس . و لكن .. و لكن .. أنّى له تصور فكرة مثل هكذا قرار ؟؟؟؟ ... أعاد التفكير و أعمل فيه جاهداً . و فجأة تذكر .. نعم إنه هو .. كيف لم يخطر لي من قبل ؟؟!! حكيم الجوارح المعتزل في الغابة المجاورة .. الذي أصبح له من العمر عتياً و عاش حياته كلها عراك مع الطبيعة وكائناتها . فكر في نفسه مرة أخرى .. ليس أمامي متسع من الوقت ، لا بد من التصرف الآن و بسرعة . نفض جناحيه على عجل و أطلقهما للريح ميمماً وجهه شطر الغابة . هذه المرة لم يكن ينظر لا إلى السماء و لا إلى الأرض بل باتجاه الغابة أمامه مباشرة .. أضحى هم السلطة و التسلط لديه أكبر من هم فك لغز السماء و أسرارها و الأرض و أغوارها .

وصل الغابة و حط على أطول شجرة سرو فيها متلفتاً ذات اليمين و ذات الشمال و ذات الشرق و الغرب ، باحثاً عن حكيم الجوارح . و لما أدرك أن مثل هكذا نوع من الطبائع لا توجد إلا في الخفاء ، أطلق صيحة قوية كإشارة لقدومه و إشارة تعارف متفق عليها فيما بين الاثنين . لم يلبث أن تناهت إلى مسامعه صيحة مماثلة التقط ذبذباتها بسرعة و حدد مكانها و علوها و المسافة التي تفصله عنها . اندفع بجناحيه مسرعاً إلى مصدر الهدف مصدراً بحركته صوت يشبه الطائرة المقاتلة .

كان الكهف الصغير مظلماً بعض الشيء تنتابه ما بين الحين و الحين أشعة من ضياء متوافقة مع حركة أغصان الشجر و اهتزاز وريقاتها . جاءه صوت هادئ بطيء ..

- أهلاً بملك الصقور في كهفي المتواضع .. أية ريح طيبة جاءت بك إلى هنا ؟؟!! لعلك تركت السلطة .. لا .. لا .. لا أظن ذلك .. لا أحد يترك شيء يأخذه غصباً و لم يؤخَذ يوماً إلا غصباً .. دعني أحزر .. هنالك ورطة .. نعم إنها ورطة .. أراها في عينيك .

- نعم أيها الحكيم .. هنالك ورطة .. لكن هذه مسؤوليتك أيضاً .. أنت تعرف .. لقد عينتك نائباً لي منذ سنوات ، لكنك تركت منصبك الموقر و آثرت العيش هنا في كهفك المنعزل هذا ، فما أصنع لك ؟؟!!

هذه إرادتك و مشيئتك و اختيارك أكر .. أنت تعلم .. أنا أحترم اختيار المرء و أنزل عند رغبته في خصوصياته .

- نعم نعم يا مليكي العزيز .. أنت تعلم أيضاً .. منصب نائب الملك أو الحاكم هو منصب صوري منذ الأزل و لا عمل لصاحبه إلا طرد الذباب و الموافقة على ما يقوله الملك .. و هو ما رأيته لدى بني البشر عندما كنت أسيراً عند أحد الملوك .. كان نائبه يقف كعمود حجري صامت لا يتكلم و كل عمله هو الإيماء برأسه بصمت دلالة الموافقة و القبول .. هل تعلم أنني كنت أثيراً و ذا قيمة و أهمية عند الملك الآدمي أكثر من نائبه هذا . أنا الطائر البهيمة العجماء كما يطلق علينا بنو البشر .. كان الملك يفتخر بي أمام زواره اكثر مما يفتخر بنائبه الحكيم هذا ، ما كان يثير لدي جائحة الضحك من هذا النائب و الشفقة عليه في آن معاً .. أتعلم ؟؟ لقد اكتشفت أمراً مهماً .. إن الملوك و الحكام يختارون نوابهم و مساعديهم حصراً من الذين يكونون قد بلغوا من العمر عتياً و ممن تحصّلوا على قدر وافٍ من الحكمة و التبصر و الاستنارة . لسببين اثنين .. الأول أنهم لا يخشون منهم انقلاباً عليهم و على سلطانهم كونهم أضحوا في دار العجز و الشيخوخة و أرذل العمر فلا قوة لهم .. الثاني أن ليسوا بحاجة إلى حكمتهم بل يستخدمونهم كواجهة و ديكور تماماً كما يقتني شخص من بني البشر مكتبة كبيرة و هو أجهل الجاهلين و لم يقرأ في حياته كتاباً قط .. عبر التاريخ لم تخلُ

القوة قط إلى حكمة .. فما عولج بقوة لم يعالج بحكمة قط .. و ما عولج بحكمة .. لم يعالج بقوة قط .

نظر الصقر الملك إلى الجارح الحكيم برهة ثم قال .. قل لي أيها المحترم .. ما هو تعريف الحكيم بالنسبة لك ؟؟ .

- باختصار شديد .. الحكيم الحقيقي هو من يعيش حياته في صراع مع الحكمة .. لا غالب و لا مغلوب .. إذا غلب الحكمة انتفت منه الحكمة .. و إذا غلبته الحكمة انتفت منه صفتها .. المهم ما علينا .. أخبرني ما هو سبب مجيئك الطارئ ؟؟!! أيش هي المشكلة ؟؟!! .

- المشكلة باختصار هي .. الرعية .. الرعية أيها الحكيم .. بدأت أصواتهم تقلقني ، و ضجيجهم و صخبهم يؤرق مضجعي ، و هي حسبما أعرف .. نذير خطر . كما أن بعضهم ممن يرتحل إلى مسافات بعيدة و يعود عند الغروب و يروي ما شاهده و رآه في ممالك و بقاع أخرى من مستجدات و تطورات فتنشأ تبعاً لذلك جلسات حوارية و منتديات نقاش .. و هذا حسب ما أدري .. ليس فقط نذير خطر .. بل نذير شؤم . و على ما يبدو .. فإن الأمر قد استفحل و لم أنتبه إلى وجوده إلا مؤخراً . أنت تعرف .. أي قرار خاطئ في هذا الشأن قد يأتي بنتيجة عكسية ترتد عليّ و على عرشي . لهذا أنا هنا أيها الحكيم .

أطرق الصقر الهرِم يفكر بهدوء ، ثم رفع رأسه إلي و قال أيضاً بهدوء ..

- في الواقع .. إن هذه مشكلة عويصة جداً .. و من الحكمة أنك أدركت هذا الأمر جيداً .. أيها الملك .. عليك أن تعلم أن الرعية عبر الزمان كله لم تنتفض يوماً و تثور بسبب الظلم بقدر ما تنتفض و تثور بسبب الجهل ، و لو كانت العامة تثور يوماً لأجل الظلم ، لانتفى الظلم من اللحظة التي انتصرت فيها أول ثورة ، و هو مكمن الخطورة في الثورات .. و لهذا سميت ثورات .. ربما نسبة إلى الثور .. ذلك الحيوان العاشب ، ألا تعرفه ؟؟ هذا الذي له قرون و يأكل النبات و ينطح برأسه و يثور بهياج ثم لا يلبث أن يهدأ بعد أن يحطم و يكسر و تكون قد خارت قواه .. و هو نفسه الذي تجري عليه لعبة مصارعة الثيران التي يقوم بها بني البشر و يتخذونه أداة لها و لا يلبث أن يخور مضرجاً بدمائه بسبب قطعة قماش حمراء يتم هزها أمامه . (الصقر الهرم يعود للصمت و التفكير مجدداً ثم لا يلبث أن يرفع رأسه و يقول) و لذلك لا بد من قرار حكيم صائب .. موزون و مدروس كي لا تحول قطيع الصقور رعيتك ، إلى قطيع ثيران .

- أرجوك أيها الحكيم دلني على حل يخرجني من هذه الورطة التي أضحت بالنسبة لي معضلة مستعصية .

- لا بأس .. لا بأس .. أنت فقط أمهلني يومين ، ثم عد إلي هنا ربما أكون قد استنبطت لك حلاً ناجعاً يقيك شر الرعية .. حرّها و بردها .

- لا .. لا .. أرجوك أيها الصقر الحكيم .. الأمر لا يحتمل أي تأخير أبداً .. لقد بدأت أسمع كلمات مثل .. الشعب مصدر السلطات .. مجلس الصقور الشعبي .. محكمة الجوارح .. آداب صيد الفرائس .. التعايش مع بقية الحيوانات و الفرائس .. و الكثير من العبارات التي تنذر بخطر داهم لا مجال لإهماله .. و لهذا أرجوك .. أرجوك أيها الحكيم .. أيها المحترم ابن المحترمين .. من غير المعقول أن تكون قد قضيت طوال تلك السنين هنا في التأمل و الصمت و السكون دون أن يتفتق ذهنك الآن عن حل ناجع مُرضٍ لمشكلة الرعيل تلك .. لا بد أن يكون قد مرت بك يوماً حادثة معينة .. هيا أيها الحكيم الوقور .. اعتصر لي ذهنك و اخرج لي بنصيحة ناجعة مفيدة .

نظر الصقر الهرم إلى السماء بعمق يفكر ، ثم أطرق برأسه إلى الأرض مفكراً ، ثم أعاد الكرّة إلى السماء و من ثم الأرض .. ظل هكذا بصمت يفكر . بينما الصقر الملك واقف كالفرخ الصغير ينتظر جوابه بفارغ الصبر و شيء من القلق و الاضطراب و ما طال انتظاره .. صاح بقلق ..

- هاااا أيها الحكيم ؟؟؟ هل عثرت عن حل المعضلة ؟؟!!!! أرجوك .. ليس لي إلاّك يا صقري هُمامُ .. سيفه دون عرضه مسلول .

نظر حكيم الصقور إلى الملك و قال بهدوء .. أظنني وجدت حلاً لمعضلتك هذه .

- هاته بسرعة .. ما هو ؟؟؟؟....

- عندما كنت أسيراً في شبابي ذات يوم ، لدى بني البشر .. كانوا يضعون على رؤوسنا قطعة من الجلد كان اسمها على ما أذكر .. البرقع .. تغطي الرأس . و بمجرد وضعها على رؤوسنا كنا ندخل في حالة عمى تام و طَرَشٌ مطلق .. لا نرى شيئاً لا نسمع شيئاً لا نتكلم شيئاً .. مع إحساس بنوع من التحدير و الخروج من العالم الذي نحن فيه إلى عالم آخر من العماء و الصمت المطبق . فنبقى هكذا جاثمين صامتين لا نتحرك و لا ننبس ببنت شفة حتى يُزال البرقع و يُكشف الغطاء عنا فيصبح بصرنا حديد من جديد .. و لا أخفيك أنني و مع مرور الوقت بدأت أحس بمتعة البرقع الذي يعطي شعور بالأمن و الطمأنينة و لا أدري ما إذا كان (يضحك بسخرية) هو السبب في ولوجي طريق الحكمة و التأمل هذا .

كان الصقر الملك مندهشاً من شيء يسمعه لأول مرة .. و قد راقت له الفكرة و استحسنها تماماً ، نظر بغبطة ممزوجة بالارتياح إلى الحكيم الهرم و قال .. لكن يا حكيمي الموقر ، أنّى لنا أن نستحصل على هذه الأداة السحرة الرائعة التي تسمى ... ماذا قلت لي ؟؟؟ ... آآآه البرقع .. سأتذكر هذه الكلمة جيداً .

- هذا الأمر دعه لي .. أنا سأتصرف بموجب ما أراه مناسباً .. المهم ما عليك الآن سوى الذهاب إلى رعيتك السائرة في درب التنوير و الثقافة و الحداثة العقلانية و الديمقراطية التحررية التطويرية التقدمية

الثورية العصرية . و قال لهم أن لديك مشروعاً تنموياً هاماً جداً يصب في خير مملكة الصقور و يقويها و يزيد من منعتها في مواجهة الأعداء ، و استخدم لذلك عسس الصقور لديك .. أليس لديك محللين سياسيين من الصقور في المملكة ؟؟.. استخدمهم في هذا المضمار ، و خلال يومين أكون أنا قد أحضرت لك نموذجاً من البرقع لتجربه و بعدها نقوم بجلب الباقي لأفراد المملكة كافة .

تهلل الصقر الملك فرحاً و اغتباطاً و رفرف بجناحيه بهجة و سروراً و حرك ذيله علامة الارتياح و قال .. أشكرك .. أشكرك من كل قلبي .. أيها الحكيم العصري .. أنت حكيم زمانك .. و اعتباراً من الآن و صاعداً ستبقى في منصبك نائباً لي مدى الحياة .. سأسارع إلى إصدار فرمان بهذا الشأن ، ثق بذلك .

هز الصقر العجوز رأسه باستهزاء و قال بسخرية .. امض أيها الملك .. امض و عجِّل بما قلته لك و خلال يومين أكون عندك .

مضى المليك مسرع الخطا و الجناح إلى مملكته . و ما أن حط الرحال حتى جمع رهط من عسس الصقور خواصه و أخبرهم بما عزم عليه من أمر و طلب منهم التهيئة لمشروعه الكبير هذا ، ثم ما لبث أن قبع على عرشه الصخري منتظراً متربصاً قدوم الحكيم الخبير بلهفة و فضول و شوق لمعرفة شكل هذا البرقع و كيفية عمله و هيئته .

مرّ يومان و المليك منتظر على كرسي سلطانه و عند ظهيرة اليوم الثاني و بينما كان ممعن النظر في السماء .. لا للغز يحله و لا لغموض يجليه و لا لسر يفك طلاسمه و عقدة خيوطه ، بل ترقّبٌ لذلك الشيء المسمى برقع . بعد هنيهة ، لم يلبث أن لاح له من لب السماء جسم طائر صغير يقترب منه .. أمعن النظر عندما اقترب الجسم أكثر .. كان الصقر الحكيم و في منقاره كيس كبير . حام الصقر العجوز حول العرش الصخري المرتفع و من ثم أسقط الكيس القماشي من منقاره فوق الكرسي الملكي تماماً . و ما أن ارتطم الكيس القماشي بالكرسي الملكي ، حتى تناثرت قطع البراقع الجلدية متشظية حول كرسي السلطان .. فوقه .. تحته .. جواره ، في منظر نادر مهيب .

حط الصقر الحكيم على صخرة مجاورة لكرسي السلطان .. يلهث من التعب بينما كان الصقر الملك ينظر بدهشة و ذهول إلى المنظر أمامه .. عرشه و كرسي سلطانه و البراقع الحاجبة المانعة للسمع و البصر و الكلام ، متناثرة حوله .. أخذ يمعن النظر بهذه البراقع المتناثرة ، التقط أحدها بمنقاره و أخذ يتفحصه و يتذوق طعمه ، ثم بهدوء و حذر شديدين أدخل رأسه فيه . و ما أن فعل ذلك حتى شعر بعماء مطلق و غياب عن العالم الخارجي تماماً ، و سرت فيه قشعريرة مرعبة .. انتفض بجناحيه و رأسه بعنف شديد طارحاً البرقع عن رأسه . أحس أنه عاد إلى الحياة و النور و العالم الخارجي من جديد .. رائع .. رائع .. أسرّ في نفسه .. هذا هو المطلوب .. هذا هو ما أبحث عنه (نظر

إلى الصقر العجوز و قال) .. قل لي أيها الوقور .. أنىّ لك الحصول على هذه البراقع جميعاً ؟؟!!! .

- هذه قصة طويلة ، فلا تتعبنّ نفسك في سماعها كونها لن تفيدك في شيء .

- كلا .. كلا .. على العكس من ذلك .. إنها تفيدني جداً .. إنها مشوقة لي جداً كي أسمعها ، فتفضل جزاك الله خيراً و هات ما عندك لا فض فوك .

- الأمر ببساطة أيها الملك ، أنني ذهبت إلى واحد من بني البشر يقوم بصناعة تلكم البراقع ، و هنالك انقضيت على واحد منها و التقطته بمنقاري و طرت به بعيداً . هاج الرجل و ماج و حاول اللحاق بي ، لكنني ارتفعت محلقاً في السماء مبتعداً عنه و هو واقف ينظر يراقبني بنظراته مندهشاً مستغرباً ما قمت به .. ألقيت بالبرقع في الكهف و ذهبت إلى خرابة مجاورة في منطقة مهجورة معزولة حيث يوجد بقايا من كنز أثري .. التقطت قطعة نقدية من الفضة و عدت بها أدراجي إلى الرجل الذي ما أن رآني حتى هب واقفاً ينظر إلي بدهشة و ذهول .. اقتربتُ إلى علو منخفض بعض الشيء و ألقيت بالقطعة الفضية أمام الرجل الذي التقطها باستغراب شديد .. بعد حوالي الساعة من الوقت ، أعدت الكرّة من جديد .. اختطفت برقع آخر من أمامه و عدت له بقطعة فضية جديدة .. أيضاً بعد ساعة

كررت العمل ذاته . و في اليوم التالي كررت العملية نفسها .. اختطاف برقع و تسديد ثمنه قطعة فضية ، و عندما عدت إلى الرجل من جديد ، وجدته قد وضع لي هذا الكيس الضخم من البراقع ، و كأنه قد عرف اللعبة و أدرك بنود التفاهم الصامت فيما بيننا .. أتعلم أيها الملك ؟؟ .. إن التفاهم الصامت بين طرفين ، هو أقوى التفاهمات و أمتنها .. هو أقوى من الاتفاقيات و العقود المبرمة المكتوبة .. المهم ما علينا .. التقطت كيس البراقع هذا و انطلقت به و عدت من جديد بكيس صغير من القطع الفضية ألقيت به إلى صانع البراقع .. و هذه هي قصة البراقع يا مليكي العزيز و هذه هي حكايتها من أولها إلى نهايتها .. و الآن أيها الملك ، ماذا ستفعل بهذا الشأن ؟؟.. ها قد وصلت البراقع إليك .

- لا أدري أيها الحكيم لا أدري .. دلّني على صيغة معينة أخاطب بها الرعية و أقنعهم بهذه البراقع .

- عليك أيها الملك أن تجمع الرعية الآن و تحدثهم عن تنمية الذات الداخلية و النفس ، و عن التأمل الروحاني و .. كيف تعرف قواك الخفية و .. فجّر طاقاتك الداخلية و الكامنة و الذكاء الاصطناعي و برمجة الذات من الداخل و .. اعلم سر الكون و .. تعلم فن اليوغا ، و كل هذه الأمور احصرها بهذا البرقع ليكون هو الأداة الناجعة و الحل الأفضل و العلاج الأمثل لكل ذلك .

أومئ الصقر الملك برأسه علامة الموافقة و الإعجاب ثم ما لبث أن أطلق صيحة في الجو ، داعياً إلى اجتماع جماهيري حاشد للصقور .

و قف كبير الجوارح أمام جمهور الصقور الذي تجمع أمامه ، و صاح بصوت جهوري عال .. يااااااا جماهير أمتنا الجارحة الغراء .. يااااا صقورنا الأشاوس الغر الميامين .. حان الآن وقت مواكبة العلم و التطور و التكنولوجيا و ضبط الفوضى في مملكتنا الموقرة .. نحن الآن في زمن التفلّت الأمني و الأخلاقي و الفوضى الخلاقة ، و هي عوامل لا تساعد على إنشاء بيئة فكرية عصرية حديثة متطورة .. إننا أيها الأحبة الكرام بأمسّ الحاجة اليوم إلى التأمل الفكري الداخلي النفسي ، و أحوج من أي وقت مضى إلى تنقية الروح و صفاء النفس و التخلص من الشوائب الفكرية المعيقة لنمونا و تطورنا ، و التخلص من عوامل الرجعية و الاستعمار و التخلف ، و هذا ما لا يمكن أن يكون إلا بجلسات صفاء و هدوء و سكينة و إيقاظ قوانا الداخلية و تفجير طاقاتنا العقلية الداخلية المعطّلة .. إن العثور على مكامن النفس و العقل الداخلية ، لا يتأتى إلا من خلال البحث في أغوار النفس و العقل (صمت ملك الصقور قليلاً و تناول كأس من الماء البارد موضوع بجانب الميكروفون أمامه ثم تابع الكلام) .. و لهذا أيها الجمهور العظيم .. يااااااا أبناء الرعية الكرام ، أحضرنا اليوم إليكم أداة سحرية رائعة و فعّالة لكي تواكب التقدم العلمي و الحضاري في زمننا الحالي ، إلا و هي .. البرقع الذي هو أحدث إنتاج اخترعه بنو البشر لأجل

سعادتنا نحن معاشر الصقور . و هو يحقق لنا كل رغباتنا الداخلية الدفينة .. كما أنه فعال لتشيط غرائزنا و انفعالاتنا و تحقيق أحلامنا و هو يحقق كل ما سبق و ذكرته لكم .. و لذلك هلموا .. هلموا يا أبنائي و يا أحبابي .. هلموا و لا تترددوا و ليضع كل واحد منكم برقع على رأسه لينعم بالسكينة و الخلود و الحياة الأبدية .. هيا أيها العسس باشروا بوضع البراقع على أبناء رعيتي الكرام و ابدأوا أولاً بالمثقفين و المفكرين منهم و تحديداً أولئك الذين يتحدثون عن الفكر و التطوير و التعليم فهم الأحوج لهذه البراقع .

أخذت الصقور تتوافد زرافات و وحداناً إلى العسس الذين كانوا يضعون برقع على كل واحد منها .. و هكذا حتى أصبح جميع صقور المملكة مطرمشين مبرقعين و ساد الجو حالة من السكون الرهيب .

نظر الصقر الملك إلى صقوره جميعاً و كأن على رؤوسهم الطير ثم أومأ إلى الفرقة النحاسية التي بدأت تعزف لحناً هادئاً كلاسيكياً مع غناء رخيم يقول ..

نام يا حبيبي نام .. نام يا حبيبي نام ..

أمك عند الجارة و أبوك بالدكان ..

نام يا حبيبي نام .. نام يا حبيبي نااااااااام .

العنبر

رفع العبد الأسود ذو العضلات المفتولة ، يده في الهواء و أهوى بالمطرقة بكل قوة على الصاج النحاسي الضخم لينطلق في القاعة الواسعة ، صوت ضخم مدوٍّ يعلن عن قدوم السلطان .. و قف الوزراء بخشوع و احترام ، تلاهم القضاة و من ثم قواد الكتائب و الفرق العسكرية و من بعدهم كبار موظفوا الدولة ، بينما وقف كل من صاحب الوزارة و قاضي القضاة جنباً إلى جنب أمام كرسي السلطان الذي ما أن دخل و وراءه السياف و عبدين شديدي البأس متمترسين بخوذتين و درعين و متقلدين سيفين و متمنطقين بخنجرين ، حتى انحنى كل من رئيس الوزارة و قاضي القضاة انحناءة طويلة تلاهما الوزراء و القواد و بقية أحاشية و رجال البلاط .

جلس السلطان على كرسيه الذهبي المنقوش المزخرف المزركش المطَعّم بأجواهر والألماس و قطع الياقوت و العقيق و الزبرجد . و ما أن فعل ذلك حتى انتصب صاحب الوزارة و قاضي القضاة بينما بقيت البقية الباقية من أحاشية على انحنائها .. ركز السلطان جسده على الكرسي

و هز بمؤخرته عليه حتى استقرت في مكانها بشكل كامل مريح و قد تمركز خلفه خصيّ أسود يهز بانتظام مروحة كبيرة من ريش النعام .. ألقى نظرة هادئة على جمهور الحاشية ذوي الرؤوس و الرقاب و الظهور المنحنية أمامه .. شعر باسترخاء لذيذ ثم رفع يده في الهواء إشارة إلى قبول التحية ، فارتفعت رؤوس الحاشية و ظهورها مستقيمة و قد أوشك أن يصيب بعضها الانهيار من تعب الانحناء و طول وقته .. أعطى السلطان إشارة أخرى فجلس جميع من في القاعة على مقاعدهم.

نظر السلطان إلى صاحب الوزارة و قال .. أيها الوزير الهمام ، ما هي قضيتنا لهذا اليوم أمام هذا الرهط من الأنام ؟؟ .

أعاد صاحب الوزارة كرة أخرى ، الانحناء ثم استقام و قال بهدوء و احترام .. أيها الخاقان المعظم سلطان الفضلاء و الكرام ، قضيتنا لهذا اليوم هو محتسب بيت مال الكتب و الأسفار و ما أمعن فيه من اختلاس و التهام .

أومأ السلطان برأسه و قال باقتضاب .. مُرهُم يدخلوه . أشار الوزير الأعظم إلى الحاجب الذي خرج ثم ما لبث أن دخل بعد برهة و خلفه ثلة من الجنود يقتادون رجلاً مدمّى ، بدا عليه التعب و الإنهاك من الضرب و الإجهاد ، مقيداً بالحبال و الأصفاد . و لما وصل إلى مسافة معينة من السلطان ، أرغمه العسس و الخصيان على الركوع و الانحناء حتى بلغت ذقنه البساط و مُرّغَ أنفه بالبلاط .

نظر إليه السلطان بعينين كالكواسر الجارحة و وجه يقطر السم الزعاف ثم صاح صيحة وجلت منها قلوب الحضور .. جلوساً و قياماً ، قائلاً .. أيها العبد الآبق الحقير .. يا ابن اللئيمة و الأوغاد .. أتدعي أنك صاحب جهبذة و علم و أنت تفعل فعل العيّار و السرّاق ؟؟!! كيف تجرؤ على فعل ما فعلت ؟؟!! تختلس الدراهم و الأموال و تظن أنك تُترَك سدى بغير حساب ؟؟ ألا تعلم أن المال مالي والرزق رزقي و أن هذه الأرض ملكي و الأنهار تجري من تحتي ؟؟!! فكيف جرؤت يا ملعون الوالدين و الحسب و النسب ، أن تتمادى في طغيانك و ما سولته لك نفسك المريضة الدنيئة الأمّارة بسوء الصنائع و الفعال باختلاس الدراهم والفلوس و الأموال ؟؟!! .

نطق المحتسب بصوت خائف باكٍ متضرع تشفق لأجله القلوب و تهتز الأوصال .. عفوك يا مولاي السلطان المعظم .. يا صاحب الأمجاد و الأحساب و الأنساب .. يا سليل الملوك و الأباطرة و القياصرة العظام الكرام .. إنني ما فعلت هذا إلا في غفلة ضمير و عقل و لحظة غاب فيها التدبر و الاتزان ، تحت وطأة الحاجة و الضيق و الالتزام .. و إنني إلى عفوكم الكريم ملتمس ، و إلى صفحكم الميمون مرتجٍ ، و من سوء فعلي و صنيعي مبتئس .

تطاير الشرر من عيني السلطان قدحاً ، و نظر إلى المحتسب شزراً و صاح كرة أخرى .. الويل لك أيها البائس المأفون ، لقد تخطيت حداً محرماً ،

و ارتقيت مرتقاً صعباً .. يا غلام لقد جنيت على نفسك و ما دريت ، و فعلت فعلتك و ما قدّرت . و ها أنت ذا واقعاً في شر أعمالك ذليلاً مهاناً ، تُظهِرْ بوادر الأسف و الندم كذباً و نفاقاً .. و زوراً و بهتاناً و لات مندم .. هذا يوم لاااااااا ينفع فيه النادم ندمه ، و لا الآثم أسفه . (قال السلطان ذلك ثم التفت إلى قاضي القضاة) .. يا قاضينا الحكيم و مفتينا الحصيف .. ما حكم الشارع في هذا الخارع ؟؟ .

شذّب قاضي القضاة لحيته بوقار زائد و قال بصوت هادئ ينم عن احترام رائد .. لا جرم أيها السلطان المعظم أن ما قام به هذا الضال المارق من اجتراء على مقامكم العالي الكبير و اختلاس الدراهم من بيت مالكم المنيع ، هو ذنب كبير لا يغتفر و حسب الشرع و الأصول ، فإن عقاب هذا المذنب هو .. أن تُضرَب عنقه بحد السيف ، فيكون بذلك عبرة لكل معتبر و كل من تسول له نفسه التطاول على مقامكم الجليل و سرقة و لو دريهم واحد فقط من بيت مال الكتب و الأسفار .

هز السلطان رأسه علامة الفخر و الرضا و الإعجاب بما فاه به المفوه قاضي القضاة الوقور المدلل ، ثم صاح .. بسم الشعب و باسم الصلاحيات الإلهية الربانية الممنوحة لي لقيادة هذه الجماهير الكادحة .. و باسم الحرية و الديمقراطية و الليبرالية و العلمانية .. حكمنا عليك بالموت .. أيها الجنود سوقوا هذا المحكوم إلى نطع السياف لتُضرب عنقه أمام الشهود و الحضور الأجلاء .

أخذ المحتسب يصيح باكياً مستغيثاً .. الرحمة يا مولاي .. رحماك .. عفوك .. غفرانك .. هذه أول مرة أفعل فعلتي الشنيعة السوداء تلك .. كل ما فعلته هو اختلاس بضعة دريهمات .. الرحمة يا صاحب الرحمة .

انصاع الجنود للأوامر و أمسكوا بالتلاليب الممزقة للمحتسب الباكي و أخذوا يجرّونه جرّاً إلى النطع حيث وقف السياف قابضاً على سيفه مستعداً لتنفيذ الحكم في حين كانت أنظار الحاشية و رجال البلاد شاخصة بتفاوت كبير فيما بين الهلع و الفضول و الاضطراب و الشماتة .

فجأة .. دخل الحاجب و صاح بصوت جهوري ممزوج باحترام كبير .. مولاي السلطان المعظم .. خاقان المشرق و المغرب .. أبلغتني الآن للتو كبرى وصيفات القصر أن مولاتي السلطانة و بعد طول انتظار ، قد أنجبت قبل قليل غلاماً جميلاً كفلقة البدر يوم اكتماله .

ارتفعت أصوات الحضور من حاشية البلاط و القواد و الوزراء و رجال الدين و من لف لفهم ، بالتهاني و التبريكات بقدوم ولي العهد للسلطان الذي بهت تماماً و قد غمرته سعادة بالغة ما بعدها سعادة .. كان هذا أول غلام ذكر بعد حوالي المائتي و خمس و سبعون أنثى أنجبهن السلطان من زوجاته و إماءه و جواريه و ملك يمينه و شماله و شرقه و غربه .. حصل ذلك و لم يكن يفصل المحتسب المسكين عن

سيف السياف إلا بضعة أمتار قليلة .. شعر أن هذا الخبر بالذات ، في هذا التوقيت بالذات هو رحمة له من السماء .. لقد توقف الزمن بالنسبة إليه ، عند هذه اللحظة بالذات .

بدأ الحضور يتوافدون على السلطان الذي لم تسعه الفرحة ، يقدمون له أسمى آيات التهاني و التبريكات بمناسبة قدوم الفرخ الجديد . و لما انتهوا من ذلك ، ساد الهدوء في القاعة انتظاراً لما سيقوله السلطان حول مولوده الجديد . و فجأة صاح السياف .. مولاي السلطان المعظم ، ماذا بشأن هذا المحكوم ؟؟ هل أنفِذ فيه الحكم ؟؟ .. و هنا صاح المحتسب بصوت عالٍ .. أتقدم بأسمى آيات التبريك و التهنئة لمولاي السلطان المعظم خاقان المشرق و المغرب و الشمال و الجنوب وأرجو أن يكون ولدكم الميمون هذا قرة عين لكم و ذرية صالحة من بعدكم ، و أرجو أن تكون هذه المناسبة السعيدة مفتاح رحمة مولاي السلطان و صفحه عني .

ساد صمت رهيب في القاعة ، و شخصت الأبصار جميعها إلى السلطان الذي صمت لبرهة من الوقت يفكر ثم نظر إلى المحتسب و قال .. إن هذا حدث مبارك ميمون لا يجوز أن تُسفَك فيه الدماء ، و جدير أن تتنزل فيه الرحمات .. أيها المحتسب لقد عفونا عنك و صفحنا عن ذنبك ، و لكن لا بد من عقوبة صغيرة بحقك .. هذا فقط لأجلك أنت و لتكون تذكرة لك و لغيرك .. لقد قضينا أن تُحبَس شهر واحد

فقط في عنبر السباع و الوحوش و من ثم تعود لعملك معززاً مكرّماً .. أيها الوزير ، فليُحبس محتسبنا هذا في عنبر الكواسر و الضواري لمدة شهر واحد و يوضع بحيث لا تصل إليه السباع و بعدها يخرج إلى عمله السابق و يُخلع عليه و تُعاد له حقوقه و أصول أمواله و ممتلكاته كلها كاملة غير منقوصة .. و ابتداء من اليوم و بهذه المناسبة السعيدة مناسبة قدوم ولي عهدنا المبارك ، تُضرب الزينة و الحفلات في القصر و المدينة لمدة أيام سبعة بلياليها و يُطعَم الفقراء و المساكين و هُمَل البهاليل و يُخلع عليهم . انحنى الوزير الأعظم باحترام و قال .. أمرك ماضٍ أيها السلطان المعظم .

سِيقَ المحتسب إلى عنبر الوحوش و الأسود و السباع الضارية الفتاكة المفترسة ، في الوقت الذي ضُرِبت فيه الحفلات و الأفراح في القصر و المدينة أيام سبعة بلياليها . و بالرغم من أن الفرحة لم تكن لتسع المحتسب المسكين الذي نجا من حد السيف بأعجوبة ليس كمثلها أعجوبة ، و قدرة قادر تصيب من تصيب ، إلا أن عنبر الوحوش و السباع كان يمثل رعباً حقيقياً له ، و كابوساً رهيباً مريعاً لا يمكن احتماله .. كان يقيم في زاوية محشورة ضمن ثنايا العنبر الحجري مرتعداً من الخوف و قد فصلت قضبان حديدية بينه و بين الأسود و النمور و الفهود و الضباع التي كانت تصول و تجول و غالباً ما كانت تقترب منه مادة أيديها و فاتحة أفواهها محاولة افتراسه .. كان يحصي الأيام و الليالي منتظراً موعد الخلاص من كابوس الرهيب هذا

و الذي تقشعر له الأبدان و تشيب لهوله الولدان . لكنه رغماً عن ذلك كله ، كان يسجد شكراً و يحمد الله كثيراً على نجاته برقبته من حد السيف .. كثيراً ما كان يتحسس رأسه و يتأكد من بقائه على جسده .

مضى من الشهر نصفه .. كان المحتسب جالساً القرفصاء في ركنه المحشور كالمعتاد ، يقلب النفس و المزاج فيما بين الفرح و الأتراح .. تارة يهش و ينش فرحاً لنجاة رقبته من نطع السياف ، و تارة ينقبض و يتوجم ترحاً ، خوفاً من المخالب و الأنياب . فجأة سُمِعَت صلصلة الحديد و قعقعة السلاح ليُفتَح الباب و يدخل منه جندي شاكي السلاح ، صاح قائلاً .. انهض أيها المحتسب فمولاي الوزير الأعظم ينتظرك في الخارج .

نهض المحتسب ببطء شديد و قد تقطعت منه الأوصال و اهترئت المفاصل و الأوتار نتيجة للجلوس الطويل خوفاً من الضواري و السباع . تقدم ببطء شديد خلف الجندي و قد اعتورته الآلام و الأوجاع .

في غرفة مجاورة ، كان صاحب الوزارة بالانتظار .. ألقى المحتسب السلام ثم انحنى انحناء يليق بالمقام . أمره الوزير بالجلوس و الراحة ثم قال .. أنت يا صاحب العلوم و المعارف و الكتب و المؤلفات و الأسفار ، و سيد الجدل و المناظرات .. كيف سمحت لنفسك أن تزلّ بك الأقدام إلى ذلك الدرك من الانحدار ؟؟!! لقد أوبقت نفسك و أوبقتنا أمام النظّارة و

الأعيان و وضعتني في موقف حرج أمام مولانا السلطان ، و أنا الذي زكيتك عنده ليضعك في هذا المقام ، فجرّت بك سفاهتك في لحظة غاب فيها عنك عقلك و رجاحة تفكيرك و علمك ، أن تسلك مسلك اللصوص و السرّاق ؟؟!! .

أجاب المحتسب بنبرة يشوبها الأسى و الانكسار .. لا أدري أيها الجليل المعظم كيف ساقت بي الأقدار إلى هذه المسالك والأفعال .. لكن و كما تعلم يا جزيل الاحترام .. فإن لكل جواد كبوة و لكل عاقل هفوة و لكل عالم زلة .

- و لكن أيها المحتسب أنت تعلم .. غلطة العالم بألف و زلة العاقل لا يعدلها ألف عذر ؟؟!! .

- لا فض فوك أيها المحترم .. صدقت و أصبت ، و لكن ما حصل قد حصل و ليس باليد حيلة .

- حسناً .. حسناً أيها المحتسب .. المهم الآن ما علينا .. لقد تكلمتُ لأجلك مع مولانا السلطان و اقترحت تخفيف العقوبة عنك و الجزاء ، فرقّ قلبه و أشفق فؤاده و أمر أن تقضي النصف الآخر من الشهر ، بقية عقوبتك ، في عنبر البقر و البغال .. و الحمير و الجحاش ، هنالك تكون أمن و أمان .. و دعة و اطمئنان .. و راحة و هناء .. لا خوف عليك و لا تثريب مع تلك البهائم العجماء ، فأنا في حقيقة الأمر و المرام أخاف عليك من البلاء و لا آمن عليك أن تقع في ساعة غفلة

و لحظت نحس بين فكي تلك الكواسر الضارية .. فالحوافر و الأقدام ألهون عليك من المخالب و الأنياب .

تنهد المحتسب بشدة و ألم و قال .. قد لا تصدق يا سيدي الوزير أنني أعيش اليوم كله في هذا العنبر بحالة رعب و ذعر شديدين لا يعلم مداهما إلا الله .. لا يمكنني أن أصف لكم الحالة التي أعيشها .. إنك لا تستطيع تصور مدى ما أعانيه في هذا العنبر المليء بالوحوش الضارية المفترسة .. إن مجرد التقاء عينيّ في عينيّ وحش واحد منهما يجعل القشعريرة تسري في جسدي من أعلى رأسي إلى أخمص قدمَيّ .. و لذلك فإنا الآن في غاية الفرح و السعادة و أشعر الآن و كأن كابوساً كبيراً قد انزاح عني .. إنني و إن نسيت يوماً ما ، فلن أنسى لكم هذا الجميل يا صاحب الوزارة المعظم ، و جميلكم هذا سيبقى ديناً في عنقي إلى يوم الدين .

انتفخت أوداج الوزير الأعظم و قال بتؤدة ممزوجة بالكبرياء .. لا بأس .. لا بأس أيها المحتسب . أنت في نهاية الأمر تبقى من أتباعنا ، ومكانتك من الفكر و العلوم و الفلسفة و الثقافة ، لا يمكن أن نتجاهلها هكذا ، و شخص مثلك استحوذ الثقافة و العلوم و الدراية، لا يمكن أن يبقى هنا في عنبر الوحوش الضارية و الكواسر المفترسة . و الآن اذهب مع الجندي إلى عنبر البقر و الحمير و الجحاش .

سِبقَ المحتسب إلى عنبر البقر و الجحاش و هو غايةٌ في السعادة و الفرح و الانتعاش .. شكر ربه كثيراً على هذه النعمة التي هطلت عليه ، و منّى نفسه بالأماني و الوعود بعد خروجه من حبسه الموعود . و شعر أن الدنيا قد ابتسمت له من جديد و ضوء الأفق قد لاح له من بعيد ، و أن الخمسة عشر يوماً الباقية لديه ، لم تعد تشكل له أي عبئ إضافي و سوف تمر مرور الكرام بالخروج من عنبر الوحوش إلى عنبر الجحاش .

مر مرور الكرام ، ما يضاهي الأسبوع من الأيام . حين سمع السجان طرق عنيف على الباب و صراخ و عويل .. كان صراخ المحتسب . انتفض الرجل من مكانه مذعوراً و استل سيفه متأهباً متحفزاً .. اقترب من باب عنبر البهائم و الأنعام و صاح بحذر .. ماذا هنالك أيها المحتسب ما شأنك ؟؟؟!!!! .

- أرجوك أيها الحارس الشهم النبيل .. يا ابن الأصايل و المحترمين .. أريد أن أرى صاحب الوزارة الآن .

- و لكن هذا من الصعب أن لم يكن من المحال .. هل هنالك ما يستوجب ذلك أيها المحتسب ؟؟؟!!! .

- أرجوك أيها الحارس .. أتوسل إليك .. إنها مسألة حياة أو موت .. إنها قضية مصيرية و أنا أحملك مسؤولية ذلك .. و إذا لبيت لي هذا الطلب أعدك أني لن أنسى لك معروفك و صنيعك هذا .

- اتق الله يا رجل و دع عنك هذا .. لم يتبق لك من محكوميتك إلا أسبوع واحد فقط .. إذا كان الأمر لا يستحق ذلك فاعلم أنك تغامر بإطاحة رأسك عن جسدك .. المرة السابقة أنقذتك العناية الإلهية أما الآن فمن سينقذك ؟؟!! .

- أرجوك أيها الحارس .. ضع الأمر على عاتقي .. أنا أتحمل المسؤولية .. أنت فقط أرسل من يخبر صاحب الوزارة بذلك .

ضرب الحارس كفاً بكف و قال بحيرة .. لا أعرف ماذا أقول و لكن ... أمري إلى الله .. حسناً أيها المحتسب .. سوف أفعل ذلك و لكن ليكن بمعلومك أنك أنت وحدك من يتحمل المسؤولية .

أرسل الحارس برسول إلى صاحب الوزارة يخبره بقصة المحتسب و الحال التي هو فيها ، و لم تمض الساعة حتى وصل الوزير الأعظم . أدى السجان له التحية و الاحترام و رافقه إلى باب عنبر البهائم و الجحاش .. فتح السجان الباب و نادى المحتسب الذي خرج من العنبر و ألقى بنفسه بين قدمي الوزير صائحاً باكياً .. أرجوك يا مولاي .. أرجوك أخرجني من هذا العنبر و أعدني إلى عنبر الوحوش و الضواري المفترسة .. أرجوك .. أريد أن أقضي بقية ما تبقى لي من محكوميتي هناك .. أرجوك يا سيدي .

بُهِتَ الوزير من هذا الطلب الغريب العجيب و صاح بدهشة .. و لكن لماذا ؟؟؟!!! معقول ؟؟!! هل تعلم ماذا تقول أيها المحتسب ؟؟؟!!! هل أنت بكامل وعيك و عقلك ؟؟!! .

- نعم يا مولاي .. نعم .. أنا أعي ما أقول تماماً .. أرجوك أبعدني عن البقر و الجحاش و الحمير و البغال .. إنني أختنق .. أنني أموت موتاً بطيئاً .. لا أستطيع .. لم أعد أستطيع التحمل .. كل شيء إلا البقر و الحمير و الجحاش .

- على كل حال لا بأس عليك .. لم يكن هنالك من داع لذلك .. فقد استحصلت لك من السلطان على أمر يقضي بتخفيض عقوبتك و سوف تخرج غداً من العنبر و تعود إلى سابق عهدك في المكتبة و الكتب و العلوم و الفكر و الأدب .. فاقض يومك الأخير هذا بهدوء و سكينة .

خرّ المحتسب مرة أخرى عند قدمي الوزير و أخذ ينتحب صراخاً و عويلاً بنشيج يقطع الأوصال و أخذ يقبل حذاء الوزير بهستيرية و يصيح .. أرجوك يا مولاي الوزير .. داخل على الله و عليك .. إنني أحتسب أمري هذا بعد الله إليك .. فقط لبي لك هذا الطلب .. فليكن يومي الأخير هذا مع الضواري و الوحوش و الكواسر المفترسة .. مع الأفاعي و العقارب و هوام الأرض جميعاً أرحم علي ألف مرة و مرة مع العيش مع البقر و الحمير و الجحاش و البغال و التعامل معها .

- أهذه الدرجة ؟؟؟؟!!!! .. أنت المثقف المتعلم تقول هذا (صاح الوزير بتعجب) .

- نعم يا مولاي المبجل .. نعم لهذه الدرجة و أكثر .. نعم أنا المثقف المتعلم و المفكر أقول هذا .. لأني مثقف متعلم و مفكر أقول هذا .. و لولا هذا لما قلت هذا .. العياذ بالله .. لقد كنت أمني نفسي أنني أنتقل إلى الراحة و الدعة و إذ بي أكتشف نفسي في الجحيم .. في جهنم الحمراء .. أعوذ بالله .. و لذلك يا مولاي أكمل معروفك هذا معي و دعني أقضي يومي الأخير مع الوحوش و الأفاعي و أبعدني عن البقر و الجحاش .

نظر الوزير إلى المحتسب بهدوء و صمت ، ثم التفت إلى رئيس العنابر و قال .. حسناً .. فليُنقَل المحتسب إلى عنبر الوحوش الكواسر و الضواري المفترسة ، و يخلى سبيله مساء غد و يؤتى به إلي .

غادر الوزير المكان و سيقَ المحتسب إلى عنبر الوحوش .. دخل إلى زاويته المحشورة القديمة و جلس القرفصاء ببهجة و سعادة ما بعدها سعادة ثم نظر إلى الكواسر و الوحوش التي كانت تحملق به بدهشة و استغراب و قال .. أهلاً بكم من جديد يا أحبتي .. لا تصدقوا كم أنا سعيد بوجودي هنا بينكم و معكم .. انها أجمل لحظات حياتي .. أنا آسف .. آسف جداً لأنني كنت سيء الظن بكم و رميتكم بظنون السوء و العوار .. سامحوني يا أحبتي ..سامحوني أرجوكم .. لقد قررت أن

أقضي بقيت يومي الأخير هذا الذي تبقى لي من محكوميت ، بينكم و سوف نحتفل معاً .. أكرر أسفي على ما بدر مني و أهلاً بكم من جديد .

حزب التمرة و الجمرة

مد يده إلى طبق الفواكه المليء من كل أصنافها و التقط حبة كمثرى كبيرة الحجم ممتلئة منفوخة ، نهش منها نهشة كبيرة بشهوانية لذيذة و هو يستمع إلى الدفتردار يتلو عليه ما تم جبايته من محاصيل زراعية و منتجات حيوانية من السمن و العسل ، و اللبن و البيض ، من الأراضي و الأطيان و الضياع التابعة له ، و ما بيعَ منها .

لتوه قد انتهى من تناول طعام الغداء بأصناف المتعددة .. لحم الضأن المشوي و الأوز المحشي بالرز و الصنوبر و النقانق و السجق و ما لحق بذلك من مشتقات اللحوم .

كان الخدم و الحشم قد رفعوا للتو اللحوم و الخضراوات و المقبلات و وضعوا بدلاً منها أطباق الفاكهة .. الدفتردار هو بدوره أيضاً قد انتهى لتوه من تلاوة ما تيسر من إيرادات و جبايات لشهبندر التجار و من ثم استأذن بالانصراف .

سرح شهبندر التجار بنظره بعيداً عبر الحقول و البساتين الممتدة أمامه على مرمى البصر ، و التابعة لأملاكه و الخاضعة لسطوته .. كان في هذه اللحظة بالذات شارداً يفكر ، ليس في أملاكه و أطيانه .. و عبيده و أقنانه .. و زرعه و طرشه .. و لا في جرار الذهب التي يمتلكها و يكتنزها و يختزنها في سراديب مقفلة تحت أرض داره الكبيرة الفسيحة الوسيعة . فهذه هي الأفكار الافتراضية التي من الممكن أن تراوده و التي عادة ما كانت بالفعل تراود مخيلته ، لكن هذه المرة كان يراود تفكيره و يشغل باله أمر آخر ربما يكون آخر ما يمكن أن يخطر على بال تاجر كبير مثله أو يمكن أن يفكر فيه تاجر يمتلك الأقنان و الأطيان و الضياع و القلاع .. ما كان يدور بذهنه شيء آخر بعيد تماماً عما يمكن أن يجول بخاطر تاجر أو أمير .. إنه سوآل بسيط جداً و ربما قد لا يفكر فيه حتى الإنسان العادي ، السوآل هو .. لماذا هنالك أحزاب و فرق و ملل متفرقة ؟؟!! لماذا كل منهم يعتقد نفسه و حزبه و قبيله و خيله و رجله أنه هو الحق الصواب و غيره هو الباطل الخطأ ؟؟!! ألا يوجد هنالك حق و باطل ؟؟!! ألا يوجد هنالك منهج وحيد صادق و عقيدة واحدة صحيحة ؟؟!! فلماذا يختلف الناس إذن و يتقاتلون و يتصارعون و يقتل بعضهم بعضا ؟؟!! لماذا لا يكون هنالك (كلمة سواء) فيما بينهم ؟؟!! .. نهش نهشة أخرى من الكمثرى و عاد بشروده إلى البساتين الغنّاء الشاسعة الممتدة أمامه ، و عاد بفكره من جديد إلى تساؤله هذا .. كيف خطر له هذا السوآل ؟؟!! هو

لا يدري بالضبط ، كأنه ربما سمعه ذات مرة مصادفة من أحد المزارعين أو الزبائن الشبان ، فهنالك بعض المراهقين المتفلسفين الذين تحصّلوا على بعض الثقافة أو الذين كانوا يحضرون بعض الدروس في الكتائيب .. تذكر أنه سمع مرة مثل هذا السوآل و لكن لم يدرِ بالضبط أين و متى ، و تذكر أنه وقتها فكّر فيه لبعض الوقت و لما لم يلوحَ له جواباً ، لم يلقِ له بالاً و رماه جانباً لأنه لم يرَ فيه ما يستحق الإجابة .

المرة الثانية التي راوده فيها هذا السوآل ، كانت من باب التسلية فقط و المزاح .. حاول أيضاً الإجابة من باب الفضول و الاستعلام ، لكنه لم يفلح فتجاهل الأمر و على مضض بسيط .

المرة الثالثة كانت هي فاتحة التساؤلات ، فقد جاءه السوآل بشكل مباشر و من الجهة المختصة بمثل هكذا أسئلة و من المفترض أنها هي التي تجيب على مثل هكذا أسئلة .. كان في المسجد يؤدي صلاة الجماعة عندما بدأ الإمام يخطب في المصلين و تطرّق لسبب من الأسباب لم يعد يذكره ، إلى نبذ الفرقة و ترك التشرذم .. و قد ذكر يومها عبارة .. (كلمة سواء) و تساءل عن سبب تعدد الفِرَق و الأحزاب و أن (كل حزب بما لديهم فرحون) و لماذا كان كل فريق و كل جهة يرى أنه هو الحق دوناً عن غيره ؟؟!! و من يومها بدأ هذا التساؤل يراوده بشكل منتظم ، فما كان منه بعد طول تفكير و تدبير إلا أن قام بدعوة إمام المسجد إلى مأدبة عامرة ، و بعد الغداء سأل الشيخ

عن ماهية كلامه و تساؤله الذي أطلقه في المسجد يوم صلاة الجمعة ، لكن لم يحصل منه على جواب ذي فائدة ترتجى ، و كان كل كلامه و أجابته يتمحوران حول .. نحن الفرقة الناجية التي هي الوحيدة فقط على منهج الحق و الصراط ، و غيرها هو الخطأ المحض .. سأله لماذا ؟؟!!

- لأننا نحن الذين على حق و غيرنا على خطأ .

- و لماذا يا مولانا الشيخ نحن الذين على حق و غيرنا على خطأ ؟؟!! .

- من دون لماذا .. نحن الصح و غيرنا الخطأ .

- طيب .. لماذا هم على خطأ ؟؟!! أقصد لماذا لا يلتحقون بنا و يعودون إلى جادة الحق و الصواب ؟؟!! .

- لأنهم يعتقدون أنهم هم الذين على حق و نحن الذين على باطل ، بينما الحقيقة هي أننا نحن على منهج الحق سائرون و هم على نهج الباطل مستمرون .

كان جدلاً بيزنطياً عقيماً لم يتوصل فيه إلى نتيجة شافية و جواب مقنع . و لذلك قرر أن يطرق مجال السياسة و يسأل أهلها و مختصيها في هذا الشأن ، علّه يتوصل إلى نتيجة مفيدة و يهتدي إلى جواب مقنع و يرى في السياسة ما لم يراه في الدين كون تساؤله هذا و معضلته الفكرية تلك تشمل المجالين الديني و السياسي . فكّر و فكّر

، ثم فكّر و فكّر و توصل إلى فكرة منطقية .. سوف أدعو صديقي السياسي المحنك و عضو البرلمان و عضو الحزب السياسي الرائد صاحب النظرية السياسية والأيديولوجية العريقة المنتشرة في الأصقاع و الملاقية قبولاً جماهيرياً واسعاً و المتمتعة بحضور كبير متجذر .. كما فعلنا مع الشيخ نفعل مع السياسي (قال في نفسه) .

نفذ مراده و دعا صديقه السياسي المنظِّر و صاحب الأيديولوجية و النفوذ ، إلى مأدبة غداء بحجة مناقشة بعض الصفقات التجارية التي كانت تتم فيما بينهما .. وُضِعَت المائدة العامرة بأنواع الأوز المحمر و الدجاج المحشي و الضأن المقمّر .. رُفِعَتْ المائدة العامرة و وُضِعَتْ أطباق الفاكهة و الحلويات .. رُفِعَت أطباق الفاكهة و طاب الكلام و الحوار و الجدل البيزنطي الروماني .. دار حوار عام معتاد حول بعض الصفقات التجارية تلاه حديث عام حول بعض شؤون البلاد و العباد العامة . بعد ذلك ، و بطريقة ذكية ، تطرّق الشهبندر الكبير إلى الأوضاع السياسية المحلية و الإقليمية و العالمية و الأحزاب السياسية وعقائدها و أيديولوجياتها السياسية و الفكرية ، و ما لبث بعد ذلك أن ألقى بطريقة طبيعية بتساؤله الملحّ المقض للمضاجع .. ماذا برأيك أيها الصديق السياسي المحضرم ، و المنظِّر الأيديولوجي العريق ، ماذا برأيك هذه الخلافات السياسية العقائدية و الأيديولوجية فيما بين الناس ؟؟!! و ماذا هذه الأحزاب بجميعها متصارعة فيما بينها .. بضعها مع بعض ؟؟!! ماذا أتباعها و معتنقيها

يقتل بعضهم بعضا ، و لماذا يحارب بعضهم بعضا و يقصي بعضهم بعضا ؟؟!! .

- لأنهم جميعاً على خطأ ، و عقائدهم السياسية باطلة بالية مهترئة لا تقدم أية حلول و لا تصلح لأن تكون حلاً لأبسط مشاكل المجتمع و الدولة ، و لذلك تراهم في غيّهم و ضلالهم يعمهون .

- و لماذا هم كذلك ؟؟ و ذلك يفعلون ؟؟!! .

- لأنهم ابتعدوا عن منهج العقل و الحقيقة و الحل الصحيح الصواب .. الناجع الناجع لمشاكل الناس و المجتمع و البشرية كافة .

- و ما هو هذا الحل الصواب الصحيح العتيد لكل هذه المشاكل و المعضلات الجسيمة .

- هو ما أنا عليه و حزبي و أصحابي .. هاااااااذا هو الحل الصحيح ، و عقيدتنا و أيديولوجيتنا هي العقيدة و الأيديولوجية الغرّاء الصحيحة الناجحة الناجعة لحل جميع مشاكل البشرية جمعاء .. حتى مشاكل البشرة و القشرة و تساقط الشعر و الصلع .. فما رأيك دام عزك ؟؟ .

- و لكن ألا يوجد حزب آخر غيركم يمتلك عفة الفضيلة و ميزة الحلول الإيجابية البنّاءة و المفيدة ؟؟!! .

- لا .. لا يوجد .. نحن الحزب الوحيد الأوحد الذي يمتلك نواصي العقيدة الصحيحة والمنطقية العقلانية و السليمة لحل كل مشاكل البشرية جمعاء ، و غيرنا هو الباطل المحض .

- لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .. و لكن لماذا هي كذلك ؟؟!! أقصد ما هي عوامل و مقومات الصحة و المنطق و الصوابية و الإيجابية في أفكار حزبكم و عقيدته الأيديولوجية الغرّاء التي تجعلها هي الحل الأمثل و الأوحد ؟؟!! .

- نحن لسنا بحاجة إلى لإثبات صحة أفكار حزبنا و عقيدته الأيديولوجية ، فهي قد أثبتت ذلك بنفسها تاريخياً و منذ زمن بعيد ، و لا ينكر ذلك إلا كل جاهل معاند .. مكابر منافق ، و ما أكثر هؤلاء اليوم في زمننا هذا .. إنهم ضالون مضلّلون و مضلّلِون .

- هل كل من لا ينتمي إلى حزبكم العتيد و لا يؤمن بعقائدكم و أفكاركم ، هو خاطئ و ضال ؟؟!! .

- نعم .. نعم و لا غرو .. كل من ليس معنا و لا يؤيد أفكارنا و لا يؤمن بعقيدتنا ، هو إما جاهل أو منافق .

- حتى أنا ؟؟؟؟!! .

- أنا أقصد أولئك الذين يتبعون أحزاب أخرى و أنت لا تنتمي لأي حزب .. أنت لا منتمٍ سياسياً و لذلك لا حرج عليك و لا تثريب يا صديقي العزيز .

انتهت هذه المأدبة كسابقتها ، بخفي حنين .

تذكر هذه الحوادث كلها ثم أنهى ما تبقّى من حبة الكمثرى بنهشة أخيرة كبيرة و رمى ببقاياها و بذورها جانباً و عاد بشروده من جديد . كانت النارجيلة قد وصلت أمامه و فوقها حبات الجمر الملتهبة . أمسك بخرطومها و أخذ يمج منه و ينفث الدخان في الهواء و يفكر في هذا السؤال الذي تحول إلى معضلة مستعصية و هاجس قوي يأبى الزوال و يقض مضجعه ليل نهار .. لقد أصبح همه و شغله الشاغل أن يعرف ما هي العقيدة الصحيحة و ما هي الفرقة أو الحزب الذي هو على الصراط الصحيح و الطريق السوي و المنهج السواء السليم .. من يا ترى ؟؟!! كيف لي أن أعرف ؟؟ من سأستشير ؟؟ كيف ؟؟. سألت الكثيرين و منهم الدفتردار و المستشار القانوني و المستشار التجاري و غيرهم لكن أحد منهم لم يملك له جواباً .. حتى رجلا الدين و السياسة لم يقدما لي في هذا الشأن منفعة تُرتجى ، فمن يمكن له أن يعطيني الجواب الشافي الكافي الوافي لهذه المسألة ؟؟؟ لا بد أن يكون رجلاً من خارج هذه المنظومة التي أراها أمامي ، و لكن أنّى لي أن أجد مثل هكذا شخص ؟؟؟ .

استدعى الدفتردار مرة أخرى و قال له .. أيها الدفتردار ، كنت قد سألتك فيما مضى عن موضوع الحزب أو الفرقة أصحاب العقيدة الصحيحة و السليمة هل تذكر ؟؟ .

- نعم يا سيدي .. أذكر تماماً .. و أذكر يومها أني أجبتك أنني لا أعرف شيئاً من ذلك ، و كل ما أعرفه أنني عندما كنت غلاماً لم يشب على الطوق ، لقنني أهلي العقيدة و الأيديولوجية و الفرقة و الحزب الذين قالوا لي أنهم هم الحق و الصواب و غيرهم هو الباطل و الخطأ ، و لم يقولوا لي لماذا ، و أنا من يومها اقتنعت بذلك راضياً مختاراً و لا أدري لماذا .

- كلا .. كلا أيها الدفتردار ، إنني لن أسألك عن هذا الأمر و لكنني أريد أن أسألك عن شخص ... لا أعرف كيف أعبّر لك ... يعني يمكن أن يكون ... يعرف شيئاً أو مثلاً يكون ... مثقفاً متعلماً ... أو ربما لا أدري ... مثلاً ... .

- حكيم ؟؟؟ .

- أووووه .. نعم نعم إنه هو .. هو ما أنا أعني و أقصد .

- في الحقيقة لا أدري يا سيدي ، و لكن ... .

- و لكن ماذا أيها الدفتردار ؟؟؟ هيا أجبني بسرعة .

- في الواقع يوجد شخص أظنه كذلك و لكن لا أدري إن كان يناسب مقامكم الكريم أو يمكن أن يكون بالنسبة لكم حكيماً ؟؟ أنا شخصياً أراه كذلك و لا أدري إن كان غيري يشاطرني الرأي نفسه .

- و من يكون هذا الرجل الحكيم أيها الدفتردار ؟؟؟ .

- إنه أحد المزارعين الفقراء الذين يعملون في إحدى مزارعكم ، هو فلاح فقير طاعن في السن ، يعيش على قوت يومه فقط و يعمل بأجره اليومي و يسكن مع زوجته في كوخ صغير بالمزرعة .

- و كيف تعلم أنه حكيم أيها الدفتردار ؟؟؟!!! .

- له كلام غريب عجيب و منطق بليغ يضاهي أبرز المتعلمين و المثقفين ، و معرفة و كلام يأسر القلوب و يأخذ بالألباب . و إنني أتحيّن الفرص لأكون هنالك في المزرعة فقط لكي أستمع إلى كلامه .. يضاف إلى ذلك أنه إنسان زاهد ذو أخلاق عالية و قناعة و شهامة كبيرة و الجميع يحترمه هنالك .

- إذن .. من الغد .. هيء نفسك أيها الدفتردار لنكون عند صاحبك الحكيم هذا .. و أرجو أن يكون هو رجلنا المطلوب .

*****

كان العجوز جالساً القرفصاء امام كوخه البائس يأكل بضعة تمرات في صحن أمامه و شيء من ذرة مشوية على تمرات ملتهبة بجانبه عندما توقفت سيارة ضخمة فخمة رقمة على بعد أمتار أمام الكوخ يرافقها و يهرول خلفها رئيس المزرعة و عريف العمال و بضعة مزارعين . ترجل شهبندر التجار من السيارة يرافقه الدفتردار و خلفهما المجموعة المهرولة إياها . وقف الفلاح العجوز متأهباً باحترام بينما أشار كبير التجار بيده إلى الجمع المتحلق حوله علامة الانصراف . انصرف الجمع بينما تقدم الشهبندر الكبير مع الدفتردار باتجاه العجوز الذي كان ينظر إليهما بخوف و اضطراب .

- السلام عليك أيها العجوز .. من المؤكد أنك تعرف سيدنا و ولي نعمتنا الشهبندر الكبير .. و قد حدثته عنك و ها هو قد جاء إليك اليوم بنفسه ليراك و يتحدث معك .

انحنى العجوز قليلاً باحترام و خوف و قال بصوت ضعيف .. أهلاً و سهلاً بسيدي الشهبندر الكبير ، إنه لشرف كبير لي أن أستقبلكم في كوخي البائس الحقير هذا ، و أرجو أن تعذروني على التقصير فهذا هو التيسير .

أشار التاجر الكبير إلى الدفتردار بالابتعاد قليلاً إلى الوراء ثم جلس بجانب الفلاح العجوز و قال .. لا بأس أيها العجوز الطيب .. إنها لسعادة لي أن أزور بعض من عمالي المخلصين الطيبين أمثالك ، و لا بأس بين

الحين و الآخر أن يخرج شخص مثلي ، من عالم الأعمال و التجارة و جو المدينة الصاخب إلى عالم الطبيعة و الأشجار و جو البرية الهادئ المتواضع و يلتقي بأشخاص طيبين متواضعين أمثالك .

- أشكرك جزيل الشكر يا سيدي و أهلاً بك من جديد .. الأرض أرضك و المال مالك و الشجر و الحجر و الزرع و الضرع ملك لك .. (قال الفلاح العجوز و هو ينظر إلى الشهبندر بنظرات ثابتة) .

أطرق الشهبندر برأسه إلى الأرض يفكر قليلاً ثم رفع رأسه و قال .. اسمع أيها المزارع الطيب .. أنا أعرف أنك لن تصدق كلامي هذا أو بالأحرى لن تقتنع بأنني جئت إليك هنا لمجرد التسلية و التريّض و حب الطبيعة ، و لذلك سأدخل معك بصلب الموضوع مباشرة .. بصراحة و من دون لف أو دوران .. هنالك سؤال يؤرقني كثيراً و يشكّل لي معضلة فكرية كبيرة جداً لم أتوصل إلى حلها ، و قد أخبرني دفترداري الواقف هناك ، أنك ربما يكون لديك من الحكمة و المعرفة و خبرة الحياة ما يؤهلك للإجابة عن سؤالي هذا .

- ما هو هذا السؤال أو المعضلة الكبيرة يا سيدي ؟؟!! هلا تفضلتم و أخبرتموني بها ؟؟؟ .

- السؤال المعضلة هو .. لماذا هنالك فرق و ملل و أحزاب متفرقة مختلفة متناحرة ؟؟!! لماذا لا يتفقون جميعهم على مبدأ واحد هو

الصحيح ؟؟!! أليس هنالك منطق و فرقة أو حزب واحد هو الصح و الصواب و الحقيقة ؟؟!! فأين هو و ما هو ؟؟!! .

أطرق الفلاح العجوز إلى الأرض يفكر و قد أمسك بيده عود صغير أخذ يخط فيه التراب أمامه .. بقي هكذا لفترة يفكر و الشهبندر ينظر إليه بصمت و ترقّب .. بعد صمت و تفكير ، رفع رأسه و نظر إلى الشهبندر و قال .. هل أنت مهتم كثيراً إلى هذا الحد بمعرفة الجواب ؟؟ .

- أجل أيها الفلاح الطيب .. أنا مهتم بذلك .

- و هل أنت مستعد لتحمل تكاليف معرفة هذا الجواب ؟؟ .

- لم أفهم .. ماذا تقصد بالضبط ؟؟!! .

- ما أقصده أيها الشهبندر أن هنالك أسئلة و تساؤلات و معضلات فكرية لا يمكن الإجابة عليها هكذا .. مباشرة و مشافهة بكل بساطة ، بل لا بد من المرور بتجارب ذاتية فردية من قبل الشخص حتى يتحصل هو بنفسه على الجواب الحقيقي الصحيح لتلكم الأسئلة و المعضلات الفكرية ، فهل أنت مستعد لذلك ؟؟ .

فكر الشهبندر قليلاً بتردد ثم حسم أمره و قال للفلاح .. نعم أنا مستعد أيها العجوز الحكيم .

هز الفلاح برأسه علامة التفهّم و سأل الشهبندر .. قل لي يا سيدي .. هل لديك حزب أو فرقة ما أياً كانت .. تنتمي لك ؟؟ .

- كلا .. ليس لي شيء من هذا القبيل .

- هل أنت منتمٍ لأي حزب معين أو تتبع جهة معينة ذات أفكار و إيديولوجيات ما .. دعك من المذهب الديني الذي تتبع له فهذا أمر مفروغ منه .

- بإمكانك أن تقول .. لا .. لستُ منتمٍ لشيء من هذا القبيل .

- هل أنت قادر على إنشاء حزب ؟؟ .

- و لكن لماذا تسأل ؟؟!! .. أقصد ما علاقة ذلك بسوآلي ؟؟!! .

- أرجو من سيدي الشهبندر الكبير أن يحتمل أسئلتي و يجيبني عليها ، و أنا سأخبره فيما بعد لماذا هذه الأسئلة .

- في الواقع .. نعم يمكنني القيام بذلك من حيث المصاريف و القدرة المالية ، أما من الناحية الفكرية ، فلا أظن أنني قادر على القيام بذلك ، فليس لدي أية أفكار و لم أهتم بحياتي كلها سوى بالمال ، و نادراً ما قرأت كتاباً في حياتي .

- هذا هو المطلوب بالضبط يا سيدي الشهبندر .

- لم أفهم ماذا تقصد بكلامك هذا ؟؟!! .

- ما أقصده هو أن يكون لديك فقط القدرة المالية على إنشاء حزب و جماعة معينة ، أما الأفكار فيمكنك أن تضع ما يحلو لك .. أيّاً كان و مهما كان .

- و ماذا سأسمي هذا الحزب ؟؟!! .

- سمه ما شئت .. أي اسم لا على التعيين أو أي شيء يخطر ببالك .

- مثل ماذا ؟؟!! لا أدري .. اختر لك أنت اسم من عندك .

- حسناً .. حسناً (تمتم الفلاح العجوز ثم نظر حوله فاحصاً متفحصاً و تابع) .. يوجد لدينا هنا في هذا الصحن بضع تمرات ناضجات و هنا في الجانب الآخر بضع جمرات مشتعلات .. حسناً .. سوف نسمي حزبك هذا .. حزب التمرة و الجمرة .

انتفض الشهبندر الكبير و صاح مكشراً بغضب.. هل تهزأ بي أيها الرجل ؟؟؟!!! .

- أرجوك أيها السيد الكبير اهدأ و تمالك أعصابك و لن تكون من النادمين .. أنا أعرف ما أقوله لك و ما أطلبه منك .. ألا تريد أن تعرف الجواب الشافي الكافي الوافي على سؤالك اللغز هذا و معضلتك المستعصية تلك ؟؟ .

- حسناً أيها العجوز .. إنني مصغٍ إليك .. تفضل و تابع كلامك .

- عليك أيها الشهبندر أن تنشئ حزباً خاصاً بك و تسميه (حزب التمرة و الجمرة) و لتكن أفكاره و منطلقاته النظرية حول فوائد التمر و الجمر في خدمة الإنسانية و البشرية ، و قم بتسجيله و ترخيصه في دوائر الدولة الرسمية.. هم سوف يوافقون لك من فورهم على الترخيص كون مثل هكذا حزب لا يشكل أي خطر و لا يقدم و لا يؤخر و لا يهشّ و لا ينشّ و يعطي في الوقت نفسه انطباعاً حسناً بوجود الديمقراطية و التعددية في البلاد .. ثم بعد ذلك تقوم أنت بدعم كل من ينتسب إليه ، مادياً ، و اجعل كل نشاطاته ضمن حفلات التعارف و الكوكتيل و الولائم و المآدب ، و اجعل له دعاية إعلامية كبيرة في الصحف و الإذاعة و قنوات التلفزة .. و تعال إليّ في يومك هذا في وقتك هذا من ساعتك تلك في العام المقبل لأجيبك على سؤالك الذي حيّرك و أعطيك الجواب الشافي الكافي الوافي .

دُهشَ الشهبندر بما سمع من كلام .. كان في حيرة من أمره لا يعرف ماذا يقول .. أحسَّ أن الفلاح العجوز صادق في قوله لكن لم يعرف لماذا انتابه مثل هكذا شعور . نظر إليه و سأله بتردد .. هل أنت واثق مما تقوله أيها المزارع العجوز ؟؟!! . أجاب الفلاح بثقة و هو ينظر إلى الشهبندر بثبات .. أنا واثق من كلامي كما أراك أمامي .. أيها الشهبندر المحترم .

ـ حسناً أيها العجوز .. حسناً .. سأسجل موعدنا هذا في مفكرتي للعام المقبل كي لا أنسى (قال الشهبندر و كأنه قد اقتنع بالكلام لكن لم يدرِ لماذا) .

فور عودته ، بدأ الشهبندر إجراءاته لإنشاء حزب (التمرة و الجمرة) .. طلب من المحامين التابعين له و من مستشاريه القانونيين و الماليين اتخاذ الاجراءات لإنشاء هذا الحزب و دعم مالي و منح حوافز تشجيعية للمنتسبين إليه . و لم يمضِ الشهر حتى كان الحزب قد تم إنشاؤه و تم استحصال التراخيص الحكومية الرسمية اللازمة لقيامه ، و اتخاذ المبنى المخصص كمقر له .. كانت نواته الأولى موظفي الشهبندر و عماله و فلاحيه و أقنانه ، ثم انضم إليهم بعض أقرباؤهم و أصدقاءهم و بعد ذلك و نتيجة للدعاية الإعلامية المكثفة و الدعم المادي و الحفلات و الموائد و الامتيازات التي كانت تُمنَح للأعضاء ، تزايد أعضاء هذا الحزب بشكل كبير و تم عقد اتفاقيات صداقة بين الحزب و بين منظمات رسمية و غير رسمية تختص بالبيئة و الطب و غيرها ، كما تم اعتماد منظّرين و محللين لآراء و أفكار الحزب و عقائده الأيديولوجية حول فوائد التمر و الجمر في حياة الإنسان و البيئة و الطبيعة . و أضحى لهذا الحزب حضوراً معتمداً لا بأس به في الحياة العامة .

مر عام على لقاء الشهبندر مع الفلاح العجوز .. كان الشهبندر قد نسي اللقاء و الفلاح العجوز و السوآل المعضلة حيث أخذ أكرب منه كل حياته و أعماله و حضوره . إلى أن دخل صباح يوم إلى مكتبه و فتح مفكرة اليوم ليجد ملاحظة مكتوبة حول الموعد مع الفلاح العجوز .

تذكر اللقاء و تذكر السوآل و الموعد الذي حان وقته و آن أوان حصوله .. طلب من السائق تحضير السيارة و الاستعداد للذهاب إلى المزرعة .

كان الفلاح العجوز جالساً في مكانه المعتاد أمام الكوخ الحقير عندما اقتربت سيارة ليموزين فاخرة الطراز فخمة المظهر ضخمة الحجم ، ترجل منها الشهبندر الكبير بذات نفسه .

- مرحباً أيها العجوز الحكيم .

- أهلاً بقدومك أيها الشهبندر الكبير .. لعلك أتيت لأجل سوآلك المستعصي الذي راودك العام الفائت ؟؟ أليس كذلك ؟؟ .

- نعم أيها الفلاح الطيب .. إنه كذلك .

- و أنت تريد الجواب إذن ؟؟ .

- نعم .. هو كذلك .

- حسناً أيها الشهبندر إليك الجواب .... أيها الشهبندر .. لماذا برأيك هذه الخلافات السياسية العقائدية و الأيديولوجية فيما بين الناس ؟؟!! و لماذا هذه الأحزاب جميعها متصارعة فيما بينها .. بضعها مع بعض ؟؟!! أتباعها و معتنقيها يقتل بعضهم بعضا ، و يحارب بعضهم بعضا و يقصي بعضهم بعضا ؟؟!! .

- لأنهم جميعاً على خطأ ، و عقائدهم السياسية باطلة بالية مهترئة لا تقدم أية حلول و لا تصلح لأن تكون حلاً لأبسط مشاكل المجتمع و الدولة ، و لذلك تراهم في غيّهم و ضلالهم يعمهون .

- و لماذا هم كذلك و يفعلون ذلك ؟؟!! .

- لأنهم ابتعدوا عن منهج العقل و الحقيقة و الحل الصحيح الصواب .. الناجع الناجع لمشاكل الناس و المجتمع و البشرية كافة .

- و ما هو هذا الحل الصواب الصحيح العتيد لكل هذه المشاكل و المعضلات الجسيمة .

- هو ما أنا عليه و حزبي و أصحابي حزب الثمرة و الجمرة .. هاااااااذا هو الحل الصحيح ، و عقيدتنا و أيديولوجيتنا هي العقيدة و الأيديولوجية الغرّاء الصحيحة الناجحة الناجعة لحل جميع مشاكل البشرية جمعاء .. حتى مشاكل البشرة و القشرة و تساقط الشعر و الصلع .. فما رأيك دام عزك ؟؟ .

- و لكن ألا يوجد حزب آخر غيركم يمتلك عفة الفضيلة و ميزة الحلول الإيجابية البنّاءة و المفيدة ؟؟!! .

- لا .. لا يوجد .. حزب التمرة و الجمرة هو الحزب الوحيد الأوحد الذي يمتلك نواصي العقيدة الصحيحة والمنطقية العقلانية و السليمة لكل كل مشاكل البشرية جمعاء ، و غيرنا هو الباطل المحض .

- لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .. و لكن لماذا هي كذلك ؟؟!! أقصد ما هي عوامل و مقومات الصحة و المنطق و الصوابية و الإيجابية في أفكار حزبكم حزب التمرة و الجمرة و عقيدته الأيديولوجية الغرّاء التي تجعلها هي الحل الأمثل و الأوحد ؟؟!! .

- نحن لسنا بحاجة إلى لإثبات صحة أفكار حزب التمرة و الجمرة و عقيدته الأيديولوجية ، فهي قد أثبتت ذلك بنفسها تاريخياً و منذ زمن بعيد ، و لا ينكر ذلك إلا كل جاهل معاند .. مكابر منافق ، و ما أكثر هؤلاء اليوم في زمننا هذا .. إنهم ضالون مضلّلون و مضلّلِون .

- هل كل من لا ينتمي إلى حزبكم العتيد و لا يؤمن بعقائدكم و أفكاركم ، هو خاطئ و ضال ؟؟!! .

- نعم .. نعم و لا غرو .. كل من ليس معنا و لا يؤيد أفكارنا و لا يؤمن بعقيدتنا ، هو إما جاهل أو منافق .

- حتى أنا ؟؟؟؟!! .

- أنا أقصد أولئك الذين يتبعون أحزاب أخرى و أنت لا تنتمي لأي حزب .. أنت لا منتمٍ سياسياً و لذلك لا حرج عليك و لا تثريب يا صديقي العزيز .

ابتسم الفلاح العجوز و هز برأسه و قال للشهبندر .. هل وجدت الآن أجوبة الشافي الكافي الوافي لسؤالك المستعصي و معضلتك الفكرية أيها الشهبندر ؟؟؟!!! .

- نعم أيها الحكيم الفاضل .. لقد وجدت أجوبة الشافي الكافي الوافي .. و أشكرك جداً على صنيعك هذا .

قال الشهبندر ذلك ثم التفت إلى رئيس المزرعة قائلاً .. ابنوا لهذا العجوز الحكيم بيتاً يليق به مكان هذا الكوخ و أحيلوه على التقاعد و ليُصرَف له معاش شهري محترم و يؤتى له بكل ما يحتاج إليه من لوازم المعيشة .

المسيح المهموم

أغراني الثلج المنهمر في سماء مدينة موسكو للخروج .. مسمّراً في مكاني خلف النافذة ... حزيناً مكبوتاً ، ملفلفاً بشال من الضيق تلتف حولي من أعلى رأسي إلى أسفل قدماي ، تثير فيَّ أحياناً رغبة بالبكاء المزعج و اللذيذ في آن معاً .

أخذت أراقب ذرات الثلج الهابطة ببطء من السماء تائهة على غير هدى في لوحة مجسدة لشال مزج ما بين ضياع مكتوم و قدر محتوم .. مستحيل .. مستحيل لقد نظرت إلي فجأة و صاحت بي .. تعال .. تعال .. اكسر زجاج النافذة و اخرج . فركت عيني غير مصدق ، فعاودَتْ الصراخ من جديد بمرح صاخب : انظر إلينا .. انظر كم نحن سعداء و نحن نتجه نحو الأرض لنذوب فيها .. نتكدس فوق بعضنا البعض نضحك و نمرح و نرقص بفرح قبل أن نتلاشى في الأرض .. هيا اخرج .. اخرج .

ضربت رأسي بيدي ضربة قوية ، فصمتت ذرات الثلج و عادت إلى تهاويها بصمت ، بعد أن يئست مني . فكرتُ قليلاً ثم ، و بحركة سريعة تناولت شالي و معطفي و فتحت الباب خارجاً .

ماشياً فوق الرصيف .. أشعلت سيكارة و نفثت دخانها في الهواء مراقباً الشارع الطويل أمامي . كان الصمت يلف المكان . مرت ساعة وأنا أمشي حتى وصلت إلى مشارف الساحة الحمراء . أحد المتاجر الصغيرة الجديدة كان يبدو أنه فتح للتو .. تأملته قليلاً ، كان دكان للتحف و الأثريات و اللوحات و ما شابه . شيء ما شدني للذهاب إليه ، أهو الفضول لاكتشاف محتويات متجر جديد أم شيء آخر ؟؟ لا أدري . تضاءلت ذرات الثلج أمامي و أنا أقترب من المتجر ، و ما لبثت أن اختفت عندما وقفتُ تحت القرميد الممدد فوق المتجر . وقفتُ أمام الواجهة الزجاجية و أخذتُ أتأمل التحف و اللوحات المبعثرة فيها و أنا أنفث دخان سيجارتي ، مادّاً شفتي السفلى للأمام علامة الزهو و الانتصار و اللامبالاة معاً .

كانت اللوحات و التحف تلمع بصمت و هي تقدم عرضاً ساكناً . برزت من بينها صور عدة ليسوع المسيح بأشكال مختلفة .. نافرة و مسطحة .. منها على الصليب و منها لوجهه حيث وضع عليه أكليل شوك و قد انساح دمه منه ، و آخر في الزاوية و هو طفل رضيع داخل مغارة مع أمه مريم العذراء .

أخذت أنقّل نظري بين تلك اللوحات متأملاً بصمت و شرود أحياناً و أنا أتابع نفخ الدخان بانتظام .. فجأة وقع بصري على لوحة داخل المتجر موضوعة على طاولة صغيرة و مستندة إلى الحائط . دققت فيها ، فإذا هي للمسيح نفسه على ما يبدو ، لكن زجاج الواجهة الذي كان يعكس ذرات الثلج المتساقطة من خلفي ، كان يسدل عليها غشاوة منعتني من تمييزها بالشكل المعبّر المطلوب ، كأنه جالساً على صخرة أو مقعد و هو يدير ظهره قليلاً .... تقدمت ببطء إلى باب المتجر و فتحته بهدوء ثم دلفت إلى الداخل . نظرتُ إلى صاحبة المتجر و هي تنقل بصرها بين عيني و بين سيجارتي ملمحة بصمت عن رغبتها بعدم وجود السيجارة . تظاهرت بالغباء و البلادة و عدم الفهم ، فلم أكن مستعداً في لحظة الاضطراب و الضيق و الكآبة تلك أن أتخلى عن أعز صديقة لي . مشيت إلى الداخل و أومأت بحركة خفيفة من رأسي إلى صاحبة المتجر العجوز علامة التحية ، فأومأت لي بطريقة محيرة بين الجمود و البشاشة ، الجمود لعدم رغبتها بوجود السيجارة .. و البشاشة لعدم رغبتها بخسارتي زبون محتمل لمتجر جديد .

اقتربتُ من مكان الصورة ، فبانت و اتضحت معالمها لي أكثر . كانت لوحة مرسومة موضوعة بهدوء و قبالتها عشرات الصور الصغيرة . أخذت أتأملها بهدوء و أنا أنفث دخان السيجارة . هذه أول مرة في حياتي أرى لوحة ليسوع المسيح بهذا الشكل . كان المسيح يجلس على صخرة متوسطة ، بشكل جانبي و قد اتكأ بوجهه على يديه المتكأتين

فوق ركبتيه مطرقاً برأسه إلى الأرض و هو غارق في التفكير . تفرسّت في وجهه قليلاً و بعمق .. وجه مليء بالهم ... لا إيحاءات بالألم .. لا وجود لصليب أو أشواك . فقط الهم .. الهم هو من كان يخيم على الصورة و هو ما كان يملأ وجه المسيح لدرجة فظيعة لم أرها في حياتي في أية صورة .. أخرجت سيجارتي من فمي و أنا لا أزال أحدق بالصورة ... أحسست فجأة براحة نفسية تملأ كياني و فضائي الداخلي .. أحسست كأنما الهم قد بدأ ينسحب هائماً من جسدي إلى تلك الصورة . التفتّ إلى البائعة لأسألها عن ثمن تلك اللوحة ، و لكني تذكرت أنني لا أحمل دفتر نقودي ، فخطر لي أن أسألها عن اللوحة نفسها .

- إنها لنيقولاي المخمور .

- و من نيقولاي المخمور هذا يا سيدتي ؟؟!!

- أووه ... هو رسام متشرد يعيش على رسم وجوه الناس في حديقة " بارك لتوري " و يشتري بثمنها فودكا (تابعت محاولةً فتح حوار معي) هو صامت دائماً .. نادراً ما يتكلم .. و عند افتتاح المحل فوجئنا به يحمل هذه اللوحة يريد بيعنا إياها و لكننا اعتذرنا .

- لماذا اعتذرتم يا سيدتي ؟؟!!

- (بحماسة لكسب ودي) أولاً لأنها ليست نموذجاً ليسوع المسيح و لا تعبر عن تاريخه و لا حياته ، انظر إليها .. إنها نشاز من بين كل

تلك الصور ليسوع ، إنها لا توحي بالكاريزما الخاصة بيسوع و غريبة عنه . و ثانياً .. هي ليست لشخص معروف .. بل لرسام مجهول على قارعة جسر " كالينين " أو حديقة " بارك لتوري " . لقد كان مخموراً و جن جنونه عندما رفضنا شراؤها فقال له زوجي أننا سنضعها بالأمانة عندنا و عند بيعها نعطيه ثمنها . هل أنت رسام يا سيدي ؟؟ يبدو أنك كذلك .

- (متجاهلاً سوآل المرأة) كم ثمن هذا اللوحة يا سيدتي ؟؟

- ثمنها زجاجة فودكا .. هذا طلب نيكولاي المخمور .

- زجاجة فودكا ؟؟؟!!! .

- نعم سيدي ... زجاجة فودكا .

- ألم يدفع أحد زجاجة فودكا ثمناً لهذه اللوحة ؟؟ أقصد بما معناه .. ألم تعجب أحد ما ؟؟ ألم تلفت انتباه أحد ما ؟؟؟ .

- لقد رآها الأب استفانوس راعي الكنيسة و قال أنه يفضل أن يكون يسوع المسيح مصلوباً أو متألماً .. لقد اعتذر عن ضم اللوحة إلى صور الكنسية و أيقوناتها ، مع أنها أعجبته و قد تأملها طويلاً بانبهار و إعجاب .

- و غير الأب استفانوس .. ألم يرها أحد ؟؟

- نعم لقد رآها السيد فلاديمير بوكوبيتش رئيس معهد الرسم . و قال أنه من المستحسن أن يكون يسوع المسيح متألماً أو مصلوباً و يستحسن وجود الدماء و الأشواك على وجهه . وضع غليونه في فمه و هو يتابعها بإعجاب و قال أن الدماء و المظاهر الخارجية هي ما ينقص هذه اللوحة . لقد اعتذر أيضاً عن ضمها للوحات العرض في صالته . أو قبولها في مرسمه . أما الزبائن العاديين ، فقد فضلوا أن يشتروا لوحات يسوع الأخرى ، لقد قلنا لهم أن ثمنها زجاجة فودكا فقط و لكنهم اعتذروا .

ابتسمتُ للعجوز ابتسامة صفراء و غادرتها شاكراً لها مبدياً إعجابي بالمتجر و مهنئاً و واعداً إياها بالعودة قريباً لشراء الصورة ، طالباً منها الاحتفاظ بها لحين عودتي . أردت الدخول معها في نقاش حول أهمية هذه الصورة بالنسبة لي على الأقل ، ولكنني صمتت في اللحظة الأخيرة لسبب لم أعرف كنهه . تابعتني المرأة العجوز مودعة بنظراتها نفسها التي استقبلتني بها ، نظرات بين الاستهجان و المودة .. الاستهجان لعدم شرائي شيء من المتجر ، و المودة على أمل العودة إليه مرة أخرى للشراء . عندما مررت بجانبها ، أطفأت سيجارتي في وعاء مخصص للسجائر و خرجت .

في الخارج، كانت ذرات الثلج بانتظاري . بدأت تتقافز علي ضاحكة بسرها .. أشعلت سيجارة جديدة و تابعت سيري في الثلج و أنا أفكر ..

كلما تذكرت هذه اللوحة أشعر براحة نفسية ، لا أعرف لماذا .. أشعر بحرية نفسية ... مهلاً .. و لكن ما هذه الحرية النفسية ؟؟!! لم أدرِ .. كأن لهذه اللوحة مفعول سحري ، و لكنه شيئاً فشيئاً أخذ يتضاءل كلما ابتعدت عن المكان .

في طريق العودة الثلجي ، أخذت أراقب خطوات المارة الممتدة أمامي و خلفي كطبقات على الثلج . لم يدر بخلدي سوى خاطر وحيد كان عبارة عن مفارقة تحليلية بين طبعات أرجل الناس على الثلج و طبعات أعمالهم في الحياة أثناء حيواتهم الدنيوية أو بعد خروجهم منها . تابعت المضي في الطريق الثلجي و قد بدأ يصبح خالياً من المارة ، ما خلا طبعات أقدامهم الكثيرة المتعددة الأشكال و الألوان .

زاحم خاطري الوحيد ، خاطر آخر .. ما هي علاقة نيكولاي المخمور بيسوع ؟؟ لماذا رسمه مهموماً متعباً ؟؟ لماذا لم يرسمه كما رسمه بقية خلق الله ؟؟؟!!! لماذا لم يتخيله كما تخيله بقية خلق الله ؟؟!! لماذا شذ عن كل هؤلاء ؟؟!! و لماذا يريد بيعه بقارورة فودكا ؟؟ تلك أسئلة لن يجيب عنها سوى نيكولاي نفسه . و لكن أين سألقاه و ما هو شكله ؟؟ تخيلته إنسان مخيف أسطوري ذو لحية كبيرة هائلة و شوارب طويلة ثخينة متدلية على جنبات وجهه .

أسئلة كثيرة اختلطت في ذهني كما اختلاط طبعات أقدام البشر و آثارهم على الثلج . شيئاً فشيئاً بدأت آثار الأقدام تطمس أفكاري . و

شعرت بالهم و الكآبة . و ما أن تذكرت لوحة يسوع المهموم ، حتى تبدد الهم و التعب كفقاعات في الهواء .. و الفودكا ؟؟ .. عجباً .. ألا يشترِ أحد هذه اللوحة بقارورة فودكا ؟؟!! أهذه الدرجة وجدوها أقل قيمة من مجرد قارورة فودكا ؟؟!! ... عجباً .

بعد يومين وصلت الحوالة المالية التي كنت بانتظارها على أحر من الجمر . و ما أن استلمت المائة و خمسون دولاراً ، حتى هرعت إلى أقرب مخزن للنبيذ من السكن الجامعي . استقليت المترو المزدحم بركابه ، و بيدي . زجاجة فودكا فاخرة أنظر إليها بفخر و إعجاب و زهو .. قريباً ستتحولين أيتها القارورة الفضية الفاخرة إلى لوحة يسوع المهموم . تصفحتُ وجوه الركاب .. الجلوس و الوقوف . كلها وجوه صامتة جامدة مختلفة التعابير و الأشكال و الألوان . متناغمة مع صوت عجلات المترو الرتيبة . بعد قليل ، سيصل المترو إلى آخر محطة له في الطرف الآخر من مدينة موسكو ، و ستتفرق الوجوه جميعاً .

انبرى صوت المذياع معلناً وصول المترو إلى محطة الساحة الحمراء . قفزت من الباب خارجاً .. أسابق خطواتي في الطريق ، لم ألتفت إلى ذرات الثلج المتناثرة حولي هبوطاً إلى الأرض . لم ألتفت إلى صراخها و نداءها لي . وصلت إلى المتجر و أنا ألهث قليلاً .. بعض الشيء .

- مرحباً سيدتي .

- مرحباً سيدي .

- أعتقد أنكِ تذكرتني .. ها قد جئت كما وعدتكِ و جلبت لكِ قارورة الفودكا .. انظري إليها ، إنها من النوع الفاخر .. فهلا تكرمت و أعطيتني لوحة المسيح المهموم لنيكولاي هذا .. هذا الذي .. تسمونه .. المخمور .

- نعم .. نعم تذكرتك .. و لكن يا للأسف .. اليوم صباحاً جاء نيكولاي المخمور .. كان صامتاً حزيناً .. دخل إلى المتجر و عندما أبصر لوحته كما هي ، اقترب منها بهدوء و من دون أن يلقي عليّ حتى التحية .. كان وجهه شاحباً مصفرّاً .. أخذ اللوحة و انصرف بهدوء .. صرخت به و قلت له (و قد قصدتك أنت) أن زبوناً سيأتي في هذه الفترة و يأخذ اللوحة مقابل الفودكا .و لكنه لم يلتفت إلي مجرد التفات ، ربما ظن أنني أكذب أو أساير لا أعرف .. دخل بهدوء و خرج كما دخل .. بهدوء و معه اللوحة . مسكين .. كان يرتجف ، ربما من البرد أو الخمر .. لقد طلبنا منه أن يرسم يسوع كما هي العادة و الأعراف و لكنه أصر على لوحته .

بلهفة مقاطعاً العجوز : أين يمكنني أن أجد نيكولاي الآن .. الآن في هذه اللحظة ؟؟؟ .

- في حديقة بارك لتوري .. تجده على ضفة رصيف نهر موسكو الكبير اسمع .. لدي هنا لوحة ليسوع ، إنها ...

- لا بأس .. لا بأس .. سأعود إليك لاحقاً سيدتي ، أعدك بذلك .

مسرعاً خرجت من المتجر الفني بخطوات سريعة . اتجهت صوب محطة المترو التحت أرضية و أنا أفك أزرار معطفي الأسود الطويل كي أتمكن من المشي بأسرع ما يمكن ... المعطف الأسود يتأرجح ورائي بعنف و زجاجة الفودكا بيدي . لم انتبه إلى أن هيئتي كانت ملفتة للنظر لدى بعض المارة .. نزلت أدراج محطة المترو تحت الأرض . في المترو لم أهتم بوجوه الناس و لا بطبعات أقدامهم . كنت أحدق بالقارورة الزجاجية القابض عليها بشدة و أنا أتظاهر بقراءة ما كتب عليها .. هاجساً من الهم قد بدأ يخيم علي و حولي . فجأة تذكرت .. ما هو شكل نيكولاي هذا ؟.. كيف سأعرفه ؟ .. لماذا لم أسأل عاملة المتجر عنه ؟.. لا بأس .. لا بأس . فكرت متنهداً بعمق .. سأسأل عنه هناك في الحديقة ، من المؤكد أنهم سيعرفونه .

خرجت من المترو مسرعاً إلى سطح الأرض وتوجهت بخطاي السابقة نحو حديقة (بارك لتوري) . دخلت البوابة الضخمة للحديقة و اتجهت مسرعاً إلى رصيف نهر موسكو الكبير . فجأة لاح لي ازدحام .. اقتربت من عاملة تنظيفات يكنس أوراق شجر متساقطة كانت قد قاومت فصل الخريف بشدة و لكنها على ما يبدو قد انهارت في الشتاء .

- عفواً سيدي .. يوجد هنا رسام اسمه نيكولاي ، إنه يرسم وجوه المارة و زوار الحديقة . فأين يمكن أن ... .

- هل تقصد نيكولاي المخمور ؟ ..

- نعم نعم (صائحاً ببهجة) إنه هو ، أين ممكن أن أجده لو تكرمت ؟ .

- إنه هناك (أشار بيده بتثاقل و بطء ممزوج باللامبالاة) وسط تلك الجمهرة من الناس ، تجده متمدداً على الأرض .. إنه ميت .. لقد مات اليوم .. قبل ساعة على ما أظن .

أجفلت برعب و كلمة الموت لا زالت تطن في مسمعي .. اتجهت راكضاً نحو الجمهرة .. أزحتهم واحداً تلو الآخر حتى وصلت إليه .. رجلاً في الأربعينات من عمره على ما يبدو ، مستلقياً على ظهره و ممدداً يديه و رجليه ، مرتدياً معطفاً مهترئ بني اللون . وجهه لا يوحي بأي بشيء و دونما قسمات أو ملامح . تفرست قليلاً فيه .. يا إلهي !!.. يوجد شبه كبير بينه و بين يسوع المرسوم . اقتربت أكثر منه و جثوت على ركبتي متفحصاً وجهه .. يا لهذا الشبه الكبير بينه و بين يسوع الذي نراه في الصور . حركت عيوني يمنة يسرة باحثاً عن اللوحة، فلم أجد شيئاً . أتاني صوت من الخلف .. هل تعرف نيكولاي يا سيدي ؟؟ .

نهضت بهدوء و أنا أنفض الوحل و التراب من على ركبتي . ثوان قليلة .. قليلة جداً ما بين نهوضي و استدارتي لمواجهة الشخص المتكلم خلفي .. كانت كل خلايا ذهني تعمل و كأنها عجلات تدور . استقر وجهي أمام وجه المتكلم .

- لا يا سيدي ... و لكن ... منذ ... فترة ... أقصد ... منذ يومين .. طلبت منه أن يرسم لي لوحة ، على أن آتي في هذا الوقت لاستلامها ، فهل تعرف شيئاً عن ذلك ؟...

- عليك أن تسأل أجدة أنتونينا .. هي كانت أقرب الناس إليه .

- و أين هي الآن ؟؟؟ ...

- انظر .. إنها هناك ... جالسة على رصيف النهر ... هل ترى هذه العجوز ذات الشعر الأبيض التي تحدق بالنهر .. إنها هي .

كان الرجل يتكلم و عينيه على زجاجة الفودكا الفاخرة التي كانت لا تزال بيدي ، قابضاً عليها بقوة عجيبة .. شققت طريقي بهدوء وسط الزحام و اتجهت نحو أجدة أنتونينا ... عجوز بيضاء بظهر مقوس ، جالسة على مقعد خشبي قديم ، أمام النهر مباشرة ، تتأمل بهدوء و صمت .

بصوت مضطرب كلمتها .. عفواً أيتها أجدة أنتونينا . التفتَتْ إلي بوجه بشوش وادع .. صامت . فتابعتُ الكلام : أستميحك عذراً أيتها أجدة كنت أريد أن أسألك عن لوحة يسوع المهموم لنيكولاي المرحوم ؟؟ .

بابتسامة خفيفة جداً و هادئة أجابت أجدة .. إنه لم يرسم قط في حياته لوحة ليسوع .. أيها الشاب .

- بلى .. بلى أيتها الجدة لقد رأيت اللوحة في متجر للأثريات قرب الساحة الحمراء . و أخبروني هناك أنه أخذها اليوم من عندهم .

- أوه .. أوه .. أوه (ضحكت العجوز) هذه ليس صورة يسوع .. هذه صورة نيكولاي نفسه ، لقد رسم نفسه ، إنه هو .

- رسم نفسه ؟؟!!! (محملقاً بها ببلاهة) كيف ؟؟ لم أفهم ؟؟!! .

- منذ حوالي العشرين يوماً ، انتابته نوبة حزن و كآبة شديدين ، لم يعرف أحد مصدرها و لا سببها ، ربما على الأرجح الضيق المادي الذي كان يعيشه ، فلم يعد يرسم أحد من المارة أو زوار الحديقة (صمتت قليلاً و هي تنظر إلى المقعد الجالسة عليه) و كان يجلس على هذا المقعد الذي أجلس عليه الآن .. وحيداً .. مهموماً (ثم عدلت من جلستها قليلاً و قالت بحدة أكثر) و في أحد المرات ، كان جالساً بهم و حزن و غم .. صامتاً متكئاً برأسه على يديه المتكئتين على ركبتيه ، فنظر ، فرأى وجهه وصورته في ماء النهر .. كانت واضحة المعالم ، براقة ، كما هي صورتينا الآن أنا و أنت .. انظر .. تأمل في صفحة الماء .

نظرت إلى النهر .. كانت صورتي أنا و الجدة واضحة تماماً ، تتأرجح فوق سطح الماء بهدوء . وقفتُ قليلاً بصمت أتأمل المشهد ، ثم التفتُّ إلى الجدة التي تابعت كلامها : نظر نيكولاي إلى نفسه ، تماماً كما تنظر أنت الآن إلى النهر ، ثم أخرج ورقة كبيرة و علبة ألوان من معطفه و أخذ

ينظر إلى النهر و يرسم صورته ، فكانت هذه اللوحة التي تتكلم أنت عنها .

- و أين هي اللوحة الآن أيتها الجدة ؟؟؟؟...

- لقد مزقها قبل موته بدقائق ، ورمى بمزقها و نثرها في هذا النهر . و منذ قليل .. منذ قليل فقط كنت أتابع آخر مزقة من مزق لوحته و هي تغوص في الماء العميق .. إلى القاع .. قاع النهر .

بقيت مدة من الوقت لا أعرف كم هي بالضبط .. شارداً .. مفكراً . و بهدوء تحولت عن الجدة أنتونينا و عدت إلى الحشد المتجمع حول نيكولاي المخمور . مرة أخرى شققت صفوفهم و عيناي جاحظتان باللاشيء .. أفسحوا لي بهدوء و هم يتابعونني بصمت و انتباه .

اقتربت من نيكولاي الممدد على الأرض .. فتحت يده و وضعت زجاجة الفودكا فيها . و التفتُّ مغادراً الحشد بصمت و قد بدأت ذرات الثلج تنهمر بصمت هي الأخرى مغطية طبعات أقدام الناس و أرجلهم .

المسرح

ها قد جئت إليك يا أوريسّا و أنا مضرج بدمائي .. تركت ساحات الوغى بعد إصابتي البليغة التي أيقنت أني لن أنجو منها .. انظري إليها .. إنه سهم غادر أتاني من بعيد و أصاب مني مقتلاً في صدري و أنا على صهوة جوادي .. أدركتُ أن الموت أدركني و أيقنتُ بنتيجة موتي الحتمية و ذهابي عن هذه الدنيا ، لكنني تماسكت مستعيناً بقوة جبّارة ربما كانت آخر مخزون لي من جسدي في هذه الدنيا أو ربما هي عناية إلهية .. لا أدري .. لكنني تماسكت يا أوريسّا و انتظرت جوادي منطلقاً بي كالبرق حتى أصل إليكِ و أموت بين أحضانك أنتِ .. يا أوريسّا يا مليكة حياتي .. أريدك أن تكوني أنت آخر شخص أراه و يراني في هذه الدنيا .

قال الفارس المقاتل ذلك ثم ارتمى أمام قدمي الشابة الجميلة التي أكبت عليه باكية و احتضنته .. في هذه اللحظة علا تصفيق حار

طويل من الجمهور و النظّارة في المسرح . و لم تلبث الستارة أن بدأت بالنزول إيذاناً بانتهاء المسرحية .

كانت الشموع الكبيرة تنير البهو الداخلي للمسرح حيث اجتمع مالك المسرح مع أعضاء و فريق المسرحية قائلاً .. أشكركم كل الشكر أيتها السيدات و أيها السادة على ما أبليتموه من بلاء حسن هذا اليوم .. لقد حضر الحاكم الروماني بنفسه اليوم لمشاهدة العرض الذي سطرت شهرته الآفاق ، و قد عبّر عن إعجابه الشديد بما رآه .. كذلك كان الأمر مع قائد الحامية الرومانية الذي كان يرافقه و الذي أدلى هو الآخر بدلوه و عبّر عن سعادته البالغة بهذا العرض .. لقد ارتفع رصيد مسرحنا أيها السادة كثيراً عند الدولة و عند جمهور العامة من سواء الناس و غيرهم ، و هذا كله إنما كان و يكون بفضل التعاون الكبير فيما بين أعضاء فرقتنا المسرحية ، و المحبة و الأخاء اللذان يسودان العلاقة بين الأعضاء إضافة إلى الاحترام المتبادل فيما بين الجميع و حسن المسؤولية و الأخلاق و التفاني في العمل لدى كل فرد من أفراد المجموعة .. و إنني إذ أهنئكم فإنني أهنئ نفسي و أبارك لها هذا العمل و المستوى بفضل جهودكم و تفانيكم .

صمت مدير المسرح قليلاً و كأنه كان يعيد ترتيب أفكاره من جديد ، ثم عاد إلى الكلام مرة أخرى و هو يحرك يديه بطريقة إيمائية إيحائية تعبيرية و كأنه على خشبة المسرح يؤدي دوراً أمام النظّارة و الجمهور

و قال .. في الواقع أيها السادة و كما تعلمون .. إن شهرة مسرحنا قد أضحت على كل لسان و مقال .. لكنني لا أظنكم تجهلون أيضاً أن أوضاعنا المالية ليست على ما يرام .. فليس كل النظّارة يدفعون المال فضلاً عن أن الحضور للجمهور بشكل عام ليس على ما يرام .. أيها السادة لقد ذهَبَتْ فترة المسرح الذهبية التي كانت موجودة أيام سقراط و أرسطو و بقية الفلاسفة الكبار العظام .. ذهبت بذهاب عصر هؤلاء الفلاسفة الذي كانوا النبراس الواعي الموعّي للناس و عامة الجمهور .. الذين اعطوا للمسرح دوره و حضوره و أهميته عند الناس ككل ، من أدناهم منزلة إلى الحكام و مندوبي الشعب و مفوضيه .. كان المسرح في تلك الإيام يتحكم بكل شيء .. بالسياسة و المجتمع و أحوال الناس .. كان هو الذي يخلق طبقة المثقفين و المتعلمين و حتى المفكّرين و الفلاسفة .. كان صورة الحياة و المجتمع . كان الناس عند مغيب الشمس يأتون من أعمالهم منهكين متعبين .. الفلاح من حقله و الجندي من ساحة التدريب و العامل من مكان عمله و الأكاديمي من مدرسته و حتى العبد يستأذن من سيده ، و بدلاً من الذهاب إلى منازلهم للراحة و تناول الطعام ، كانوا يأتون إلى المسرح لحجز مقاعد لهم لحضور العرض المسرحي .. و اليوم .. اليوم أيها السادة .. لقد ذهب بريق المسرح و ألقه و ذهب حضوره و أهميته لدى الناس .. خواصهم و عمومهم و قلّ حضورهم و بالتالي قلَّ المورد المالي للمسرح .. ربما لكثرة المذاهب الدينية المتعددة الوافدة و العبادات

المنتشرة انتشار النار في الهشيم .. لا أدري لكن أقول ربما .. (صمت الرجل من جديد ثم ابتلع ريقه محاولاً التمهيد لما سيقوله ، ثم تابع) .. أيها السيدات و السادة الأفاضل الأجلاء .. و نتيجة لوطأة الضغط المالي الضاغط علينا و على مسرحنا ، فأنا مضطر إلى تخفيف العروض المسرحية إلى أقصى حد لها و ربما إلى إيقافها .. أنتم تعلمون ربما كم نحن نتعب و نقاسي و نؤدي عروض فيها من التعب و الإرهاق الجسدي و النفسي و العصبي ما يفوق التصور .. عروض يكون فيها أحياناً شخص واحد فقط .. و أحياناً لا يكون .. و لذلك فهنالك عرض قد تم تقديمه لي من أحد الأكاديميين و هو الفيلسوف آفتيموس .. هذا العرض سأتلوه عليكم و أترك لكم حرية الاختيار ، و ما تقررونه أنتم ، أنا موافق عليه سلفاً .. لقد عرض علي الفيلسوف أفتيموس أن يستأجر مسرحي هذا لساعات معدودة يلقي فيها محاضراته أمام تلاميذه و طلبته من العلوم و المعارف ، كونه لا يمتلك المال الكافي لبناء أكاديمية خاصة به و لم يتلقَ عوناً مالياً أو تبرعات لأجل ذلك كما كان يحصل في سابق العهود و سالف الزمان مع فلاسفتنا الكبار العظام .. فإذا قبلتم بذلك العرض فإنني سوف أتقاسم معكم ريع الإيجار ، أما إذا لم يرق ذلك لكم ، فلنبقَ كما نحن عليه الآن و لكن عليكم أن تتحملوا النتائج و تقبلوا بما نحن عليه الآن .

نظر أعضاء الفرقة بعضهم إلى بعض بدهشة و ذهول ثم التفتوا إلى مالك المسرح و قالوا له .. المسرح مسرحك يا سيدي و أنت صاحبه و

مالكه ، و القرار يعود إليك أولاً و أخيراً ، و الأيام الجميلة التي عشناها سويةً في هذا المسرح في سرائها و في ضرائها ، كفيلة بأن تجعلنا نحفظ جميلك علينا و حسن صنيعك معنا ، فافعل أيها الرئيس ما أنت تراه مناسباً و نحن لك طائعون موافقون .

انفرجت أسارير مالك المسرح و تهلل وجهه فرحاً و بسطة و قال .. حسناً .. حسناً أيها الأحبة .. أنا شاكر لكم حسن ثقتكم و ظنكم بي ، و أعدكم أنني لن أخيّبكم أبداً .. و طالما الأمر كذلك ، فأنا أميل إلى قبول عرض الفيلسوف أفتيموس و بموجبه سوف يتم استئجار المسرح مرتين أسبوعياً و سوف نتقاضى مئتي دراخما أجراً لذلك .

*****

اكتظ مدرج المسرح الكبير بحضور كثيف و جمهور غفير .. كانت الجلبة و الضوضاء تملآن المكان من كل جانب و لم يدم ذلك طويلاً حتى ساد صمت كبير في المدرج عندما دخل الفيلسوف أفتيموس إلى المسرح و اعتلى المنصة المرتفعة .. كان ذا شخصية كاريزمية آسرة جذابة .. ألقى التحية على الجمهور و بدء بإلقاء محاضرته التي كانت كلها عن الكون و الوجود و الإنسان و علم الرياضيات و الفلسفة و علاقة

ذلك كله بعضه ببعض . و كيف يمكن للإنسان أن يعرف أسرار الكون و خبايا المجهول و الآلهة ، بالفلسفة و الرياضيات و العلم البحت و الفضيلة و الأخلاق . ثم انتقل بعد ذلك إلى شرح مطول عن التساؤل لدى الإنسان حول أي شيء و أن على الإنسان أن يتساءل بأسلوب عقلاني مجرد و يُعمِل العقل و المنطق في تساؤله هذا و يكون حيادياً عليماً بحتاً خارج نطاق الغرائز و يتجنب الإيمان المجرد لمجرد العاطفة و الغريزة و التوجيه الخاطئ . و ما أن انتهت المحاضرة حتى علا تصفيق حار شديد من جمهور حاشد غفير رافقه هتافات بحياة المعلم أفتيموس .. بعد ذلك فُتِح باب النقاش و بدأت أسئلة الحضور تتوارد تباعاً من كل صنف و نوع و أسلوب .. كلٌ حسب رؤيته و عقليته و فهمه ، و الفيلسوف المعلم أفتيموس يجيب عليها كلها و يدعمها بالحجج و المنطق و الشواهد . و عند انتهاء جلسة الحوار و النقاش ، أعلن المعلم أفتيموس انتهاء المحاضرة و بدأ الحضور بالانصراف ، تقدم المعلم إلى مدير المسرح و نقده المئتي دراخما ثم انصرف مع بعض تلاميذه و أتباعه بهدوء .

ما أن توارى العالم أفتيموس عن الأنظار و أتباعه ، حتى استدعى صاحب المسرح أعضاء الفرقة و تقاسم معه الدراخمات التي كسبها قائلاً لهم .. حسناً أيها السيدات و السادة ، كيف رأيتم هذا العرض ؟؟ أليس عرضاً مناسباً و جيداً ؟؟ .

هز أعضاء الفرقة جميعهم برؤوسهم علائم الإيجاب و القبول .

مرت حوالي العشرة أيام عندما كان مدير المسرح في غرفته يراجع بعض أوراق و مسودات عروض مسرحية مقترحة حين طرق الخادم الباب و قال له باحترام إن كاهن معبد الإله جوبتير يريد مقابله لأمر ضروري .

- دعه يدخل على الفور .. (صاح المدير و قد سارع إلى ترتيب الأوراق و طيها و وضعها في رف جانبي ثم اتجه إلى الباب لاستقبال كاهن المعبد) .. انحنى أمامه باحترام بالغ و دعاه إلى الجلوس قائلاً .. أي ريح طيبة جاءت بكاهن معبد جوبتير المبجل ؟؟ .

جلس الكاهن بوجه عبوس مقطب قائلاً .. بل قل أية ريح خبيثة .. ما هذا الذي قمتَ به يا صاحب المسرح المحترم ؟؟ .

- ما الذي قمتُ به يا سيدي ؟؟؟!!! .

- كيف تسمح لمسرح مثل مسرحك .. عريق مشهور و معروف على مستوى مقاطعات عدة و يرتاده النظّارة و الجمهور من كل حدب و صوب ، أن يتحول إلى مرتع للسخرية و التضليل الكاذب و الأكاذيب المختلقة ؟؟!! .

- هل تقصد محاضرات المعلم آفتيموس ؟؟!! .

- نعم .. هذا ما أقصده بالضبط .

- في الواقع أيها الكاهن المبجل أنت تعلم .. المسرح اليوم لم يعد كما كان في سابق العهود و الأزمنة الأوائل ، في ازدهار و مكسب مادي رابح ، بل أصبح اليوم عبئاً ثقيلاً و همّاً على القلب منقطع النظير لا يحتمل ، و تجارة كاسدة خاسرة .. فكان لزاماً عليّ أن أقبل عرض الفيلسوف آفتيموس ، إنه ينقدني مئتي دراخما أسبوعياً و هو مبلغ يسد شيء من الخسارة و النقص الماديين لمسرحنا هذا .

لمعت عينا الكاهن ثم قال بشيء من حدة و عتب .. و لماذا لم تعرض علينا نحن مثل هذا العرض ؟؟!! إن الإله جوبتير كما تعلم هو أبو الآلهة جميعاً و أقواها .. هو إله الشمس و سيدها و إله القمر و سيده .. هو الذي يرسل العواصف و الرياح و الأمطار .. يدمر المدن و يثير البراكين فوق رؤوس أعدائه و يزلزل الأرض من تحت أقدامهم فيبيدهم .. رمزه النسر الذي يطير و يحلّق في الأعالي الأعالي حيث لا يمكن لأحد أن يطاله .. جوبتير ملك الآلهة و سيدها ، فلماذا لم تخبرنا بذلك و نحن الأولى بذلك ؟؟!! .

- يبدو أن هنالك سوء فهم أيها الكاهن المبجل .. فالمعلم آفتيموس هو الذي جاء إلينا و تقدّم بعرضه هذا و أنا قبلته بعد أن عرضته على باقي أعضاء فرقة المسرح الكرام وهم قد وافقوا عليه .. أنت تعرف .. إننا هنا في هذا المسرح نتبع الأسلوب الديمقراطي .. الأسلوب

الذي اخترعت لنا الإغريق و علمونا إياه ، فلا أحد يستطيع أن ينكر الديمقراطية .. هل تستطيع أن تنكرها أنت يا سيدي ؟؟ .

- لا لا أنا لا أنكرها ، و لكن طالما الأمر كذلك مرهون بالمنهج الديمقراطي ، فأنا يا سيدي يسعدني أن أتقدم إليك بطلب السماح لنا باستئجار مسرحكم الموقر لمدة ساعتين في اليوم من ثلاثة أيام في الأسبوع لإلقاء محاضرات عن الإله الكبير جوبتير إله روما و سائر المدن و المقاطعات ، تماماً كما يفعل المعلم آفتيموس ، و سوف أنقدك ثلاثمئة دراخما لقاء ذلك ، فهل أنت من الموافقين على هذا العرض السخي ؟؟؟ .

- نعم .. نعم بكل سرور أيها الكاهن المبجل ، يسعدني ذلك جداً ، بل هو من أسمى و منتهى غايات سروري .

بدأت محاضرات كاهن معبد الإله جوبتير في المسرح .. كان يحضرها جمهور غفير من أتباع الإله جوبتير .. كان الكاهن يعتمد أسلوب الإثارة و التحريض و التجييش الديني ضد بقية الديانات و العقائد الأخرى و منها مدرسة الفيلسوف آفتيموس ، و يدعو لمحاربة كل من يخالف فكر معبد الإله جوبتير .

مضى أسبوع على آخر محاضرة لكاهن معبد جوبتير عندما دخل الخادم على مدير المسرح يخبره بوجود كاهن معبد الإله أبوللو بالباب ..

- دعه يدخل بسرعة .. (صاح مدير المسرح و هبّ من مقعده لاستقبال الكاهن) .. أهلاً و سهلاً و مرحباً بكاهننا المبجل ، كاهن معبد الإله أبوللو الكبير .. أي ريح طيبة جاءت بك إلى هنا ؟؟ .

- ريح ماذا يا رجل ؟؟!!!! و هل أنت أبقيت لنا ريح نأتي بها إليك ؟؟ .

ابتسم المدير بمكر و قد عرف سبب مجيء الكاهن ثم قال .. أرجو من كاهننا المبجل أن يقول لي عن سبب انزعاجه مني و أنا مستعد لتلافي هذا السبب بكل طيبة خاطر و اعتذار إذا لزم الأمر .

- السبب أيها المدير .. هو أنك تؤجر مسرحك لهذا المأفون المتفلسف آفتيموس الذي يدّعي العلم و الفلسفة و معرفة أسرار الطبيعة و الكون ، و هو مجرد محتال دجال مدّعٍ موصوم بالكفر و الرذيلة ، يخدع أتباعه الجهال ببضاعة الوهم و الكذب .. (صمت الرجل قليلاً يبلع ريقه ثم تابع ..) كما أنك أعطيت ساعات أخرى لمعبد الإله جوبتير و أنت تعلم أننا مع احترامنا لهذا المعبد و كهنته إلا أن الإله جوبتير ليس الإله الوحيد و المعتمَد في بلادنا .. أنت تعلم أن الإله أبوللو هو من أقوى و أشهر الآلهة .. هو إله الحرب و الموسيقى و الشفاء هو إله الطب و الدواء و لولاه لكانت الأمراض قد فتكت بالناس فتكاً و لكانت بلادنا قد خسرت جميع حروبها مع الدول المجاورة التي تناصبها العداء .. هو إله الحقيقة التي لولاها لبقي الناس في غيهم و جهلهم و ضلالهم ينحدر مستواهم إلى مستوى الحيوان .. فلماذا أيها المدير

المحترم قد تجاهلت إلهنا و معبدنا و استثنيتنا من دعوتك هذه التي أضفت شهرة كبيرة على مدرست الطارف آفتيموس و على معبد الإله جوبتير ؟؟!! .

ابتسم مدير المسرح بوقار زائد و قال .. لا تؤاخذني يا سيدي ، يبدو أن هنالك سوء فهم بالموضوع .. إن ما حصل في الواقع هو أن كل من المعلم آفتيموس و كاهن معبد جوبتير المبجل ، جاء و طلب مني حجز المسرح لساعات معدودة في أيام معلومة من الأسبوع و أعطاني الأخير مبلغ ثلاثمئة دراخما لقاء ذلك ، و أنتم و لا شك عالمين بسوء حال المسرح هذه الأيام و تدركون الضائقة المالية التي نمر بها الآن .. أنا لدي فرقة و أعضاء فرقة ، فمن أين لي بتأمين أجورهم و معاشاتهم ؟؟ و ما بوسعي أن أفعل لأجل ذلك ؟؟!! أجيبوني من فضلكم لو تكرمتم .

أشار كاهن معبد أبوللو بيده علامة المقاطعة و الكف عن الكلام و قال .. حسناً حسناً لا بأس .. أنا أريد أيضاً أن أستأجر مسرحكم هذا لساعات محدودة في أيام معلومة من الأسبوع ، و سوف أزيدكم مائة دراخما عما يعطيكم إياه كاهن معبد جوبتير .. إن إلهنا الإله أبوللو هو أيضاً ذو سعة مالية و لا يقل شأناً في هذا المضمار عن الآلهة الأخرى أياً تكن هذه الآلهة .

- يسعدني و يسرني غاية السرور ، قبول عرضكم هذا يا سيدي .

ابتدأ كاهن معبد أبوللو محاضراته في المسرح بحضور جمهور حاشد من أتباع الإله أبوللو . كان يهاجم مدرسة الفيلسوف آفتيموس و يغمز من قناة معبد الإله جوبتير ، يرافق ذلك هياج من الحضور الحاشد الكثيف و صراخ و عويل .

مر أسبوع على بدء محاضرات الإله أبوللو عندما دخل خادم المسرح ليعلن عن قدوم كاهن معبد الإله بلوتو . نهض المدير من مقعده باحترام بالغ لقدوم الكاهن الذي ابتدره القول .. كيف تسمح أيها المدير للمعلم آفتيموس و كاهن معبد جوبتير و كاهن معبد أبوللو بإلقاء محاضرات في مسرحك هذا و لا تفعل هذا معنا نحن ، أتباع الإله بلوتو إله العالم السفلي الذي لا يمكن لأحد منازعته هناك و الذي يخضع الأموات لسلطته التي لا ينازعه فيها أحد و الذي اختطف الآلهة برسيفوني ابنة الإله ديميترا وتزوج بها فقط لمجرد خلاف حصل بينهما ؟؟!! .

- أنا مستعد لكل طلباتكم يا سيدي الكاهن المبجل .. إن الإله بلوتو لا يمكن لأحد أياً كان إغضابه و النجاة من سطوته إن فعل ذلك .

- أريد أن أستأجر مسرحكم الموقر هذا لسويعات معدودة في أيام معلومة بالأسبوع ، و أزيدكم مائة دراخما عن أكبر أجر تتقاضونه من غيري .. الإله بلوتو لا يرضى أن يكون بمنزلة أقل من منزلة هؤلاء ، فما قولكم دام فضلكم .

- نحن نخدمتكم و خدمة الإله بلوتو .

كان المدير جالساً في غرفته الخاصة بالمسرح يشرب النبيذ المعتق عندما دخل الخادم الذي ما أن فتح فاهه بالكلام حتى ابتدره المدير مقاطعاً .. لقد جئت لتقول لي أن أحد كهنة أحد المعابد المنتشرة في بلادنا قد جاء أليس كذلك أيها الخادم ؟؟ .

- نعم أيها النبيل .. هذا بالضبط ما أردت قوله .

- و من هو هذه المرة ؟؟!! .

- إنه كاهن معبد الإلهة فينوس .. إلهة الحب والرغبة الجنسية و ملكة اللذة و المتعة .

- حسناً .. دعه يدخل بعد أن أنهي نبيذي المعتق هذا .

دخل كاهن معبد فينوس و خرج و قد حصل على ساعات عدة في المسرح يلقي فيها محاضرات عن الإلهة فينوس .

*****

طُرق الباب و دخل الخادم .. سيدي .

- نعم ماذا تريد ؟؟ كاهن أي معبد أتى اليوم ؟؟!! .

- إنه ليس كاهن لمعبد .. بل هو رئيس طائفة الإله الواحد الذي في السماء ، تلك التي يسمون أنفسهم توحيديين و الذين لا يعبدون الأوثان و يدعون إلى المحبة و التسامح .

توجس المدير قليلاً ثم فكر لبعض الوقت و قال للخادم .. حسناً دعه يدخل .

عندما دخل الرجل ، استقبله المدير بترحاب و ودّ و حذر في الوقت نفسه .. لنا الشرف بقدومك يا سيدي .. كيف يمكن لي أن أخدمك ؟؟!!! .

جلس الراهب على الأريكة الفخمة و قال .. بكل بساطة أريد أن أستحصل منك على سويعات معدودة لأيام معلومة في الأسبوع لمحاضرات و دعوات دينية للمؤمنين الأطهار من أتباعي .. عفواً أقصد أتباع الإله الواحد .. و المؤمنين بي .. عفواً أقصد المؤمنين بالإله الواحد ، ألقيها في مسرحكم هذا الذي سمح لعبدة الأوثان بإلقاء محاضراتهم في جوفه .. و لا تسألني عن الإيجار فأنا مستعد لذلك .. إنني أغنى من كل هؤلاء لو كنتَ تدري .. عفواً أقصد أن إلهي يمدني بالمال ، فما قولك عمّ صباحك بالخير و البركات من إلهنا الذي في السماء ؟؟؟ .

ارتبك مدير المسرح و قال بشيء من الاضطراب و الخوف الخفيف .. أهلاً بكم يا سيدي في مسرحنا .. إنه لمن دواعي سروري أن ألبي لكم هذا الطلب .

أصبح المسرح بكل ساعات اليوم ، حكراً على المحاضرات الدينية و الفلسفية و لم يعد هنالك مكان شاغر لإلقاء مسرحية واحدة فيه . فقد تحول إلى معبد يضم أديان و عقائد عدة تختلف بعضها مع بعض و تناجز بعضها بعض ، العداء و الهجوم و الانتقاد . لكن اللافت للنظر أن الإيرادات المالية التي كانت تنهال على المسرح نتيجة لذلك ، لم تصل في يوم من الأيام إلى هذا الحد الذي وصلت إليه من الضخامة و الكم .. حد جعل أعضاء المسرح يعيشون حياة راغدة هنيئة دونما عناء أو تعب أو تحضير و بذل جهد .

كان الكهنة مختلفين فيما بينهم بالعقائد و العبادات ، في خطاباتهم و محاضراتهم التي كانوا يلقونها ، و كانوا أحياناً يتغامزون بعضهم بعضا ، لكنهم جميعاً كانوا متفقين على أمر واحد هو مهاجمة المعلم آفتيموس و مدرسته الفكرية الفلسفية و مناصبتها العداء .. في موضوع الآلهة و الدين كانوا شيعاً متفرقة متناحرة مختلفة تنتقد بعضها بعضاً و تهاجم بعضها بعضاً و تفسّق بعضها بعضاً ، لكن في قضية المعلم آفتيموس و مدرسته العلمية الفكرية ، كانوا جميعاً صفاً واحداً كالبنيان المرصوص ، يشنون عليه حرباً عوان قارسة

قارصة لا رحمة فيها و لا هوادة و كأنهم كتلة واحدة ، و يضربونه بنيران ألسنتهم و شتائمهم ، ضربة رجل واحد .

*****

في الحديقة الخلفية للمسرح ، جلس المدير مستجماً في حوض الحمام الساخن بينما كانت إحدى الخادمات تدلّك له رقبته من الخلف .. تناول عنقود من العنب و رفعه للأعلى ثم التقط بفمه أدنى حبة منه .. بدت علامات الثراء و البذخ واضحة عليه . فجأة طُرِقَ الباب و دخل الخادم قائلاً .. سيدي المدير هنالك ... .

- إذا كان هنالك كاهن جديد فقل له أنه لم يعد يوجد لدينا أوقات شاغرة ، كل ساعات النهار أصبحت محجوزة .

- كلا يا سيدي ، إنه ليس كاهن جديد ، بل هم لفيف الكهنة أنفسهم الذين يلقون المحاضرات هنا في مسرحنا هذا ، و هم يطلبون مقابلتك الآن و على وجه السرعة .

انتفض المدير من مغطسه بطريقة جعلت الماء الساخن يتطاير في كل مكان و صاح .. ماذا تقول ؟؟!! كلهم ؟؟!! هل قلت كلهم ؟؟!!

مستحيل .. علام اجتمع هؤلاء و هم الذين لم يجتمعوا يوماً قط بعضهم مع بعض ؟؟؟!!! إن هذا لهو العجب العجاب !!!!! .

- لا أدري يا سيدي و لكنهم الآن في الخارج و يطلبون مقابلتك على عجل ، هل أدعوهم للدخول لتتأكد بنفسك ؟؟ .

- كلا كلا .. انتظر خمس دقائق فقط حتى أكون قد ارتديت ثيابي و جهزت نفسي . قال المدير ذلك ثم أشار للخادمة التي كانت تدلّكه بالانصراف و نهض على عجل ثم أخذ ينشف جسده من الماء بفوطة كبيرة .. ارتدى ثيابه و اتجه إلى الباب لاستقبال الكهنة .. أهلاً و سهلاً بكهنة المدينة الكرام ، إنه لشرف كبير لي استقبالكم في حديقتي الغنّاء المتواضعة .. كما إنه لسعادة كبيرة غامرة لي أن أراكم مجتمعين معاً .. هل اتفقتم جميعكم على إله واحد تعبدونه ؟؟!! إن هذا لهو العجب العجاب ، لكنه شيء ممتع و بشرى سارّة على كل حال .

جلس الكهنة بوقار على الأرائك الفخمة ذات الطنافس و الزخرف و الألوان و الزركشات المذهّبة ثم ابتدر كاهن معبد جوبتير الكلام كونه الأكبر سناً و معبده أقوى المعابد في المدينة .. في الواقع يا حضرة المدير أنت مخطئ في تصورك هذا ، فنحن لا يمكن لنا أن نتفق على إله واحد .. هذا ليس من سابع المستحيلات فحسب بل من عاشرها أيضاً ، و هو من المحظورات و الممنوعات .. لكننا جئناك في أمر آخر نحن جميعاً

متفقون عليه ألا و هو منع المعلم آفتيموس من إلقاء محاضرات في مسرحكم الموقر هذا ، لأن مسرحكم قد أصبح مكان للعبادة و التدين و الدين القويم و ليس مكان للهرطقات و الأكاذيب و الدجل و الشعوذة و الانحراف عن الحقائق الإلهية السامية .. و نحن أيها المدير مستعدون جميعاً أنا و رفاقي و أخوتي و خلاني و أحبتي الكهنة الموجودون هنا أن نعوضك عما يدفعه لك هذا الكاذب الدجال المأفون .. و أنا هنا أتكلم بالنيابة عن جميع أخوتي و أخواني و أحبتي و خلاّني الكهنة الموجودين هنا و بموافقتهم .

نظر مدير المسرح إلى باقي الكهنة ، فأومأوا جميعاً برؤوسهم علامة الإيجاب و الموافقة . فكر مدير المسرح قليلاً و هو شارد الذهن .. كان قد فوجئ تماماً بهذا الكلام ، ثم نظر إلى الكهنة و قال .. حسناً أيها السادة .. غداً سوف أتكلم مع المعلم آفتيموس و أطلب منه فسخ العقد الذي بيننا .

- نرجو ذلك أيها المدير (قال كاهن معبد جوبتير ثم حدّق بالمدير و قال بلهجة تهديد مبطنة) و بصراحة فإن وجود هذا الرجل و استمراره في إلقاء المحاضرات و الخطابات في المسرح ، يشكّل استفزازاً قد يثير مشاكل كبيرة عواقبها خطيرة .

*****

طرق الخادم الباب ثم دخل معلناً وصول المعلم الفيلسوف آفتيموس .

- تفضل بالجلوس أيها المعلم .. أهلاً و سهلاً بك .. قل لي ما هو نوع الفاكهة التي تحب أن تتناولها ؟؟ .

- أرجو أن تعذرني يا حضرة المدير ، فوقتي ضيق جداً ، ولكن قيل لي أنك تريد مقابلتي ؟؟!! .

- نعم .. نعم أيها المعلم .. في الواقع لقد جاءني البارحة حضرات السادة كهنة المعابد في المدينة .. الذين يلقون المحاضرات هنا في المسرح ، و طلبوا مني بالإجماع منعك من إلقاء المحاضرات في هذا المسرح لأن ذلك على ما يبدو يثير حفيظتهم .

- و ما علاقتي أنا بذلك أيها المدير ؟؟!! ثم ما شأنهم و شأني ؟؟!! أنا لا أقترب منهم ولا أحتكّ بهم و لا أتكلم عنهم حتى في محاضراتي ، بينما هم في كل محاضرة لهم و خطاب ، لا يدعون شتيمة إلا و يكيلونها لي و للعلم و الفلسفة ، و لا يدعون سباب إلا و يوجهونه لي ، تهييجاً و تحريضاً علي و على مدرستي .. ماذا يريد مني هؤلاء القوم ؟؟!! أنا لم أؤذيهم بشيء ؟؟؟!!! .

ضرب المدير كفاً بكف و قال .. لا أدري ماذا أقول لك بالضبط يا معلم و لكن أرجو منك أن تتفهم الموضوع .. هؤلاء قوم متسلطون و نافذون

و لا يمكن العبث معهم .. إنهم قادرون على أذيتي و أذيتك .. أنت تعلم ذلك جيداً على ما أظن ؟؟ .

- كلا أيها المدير .. إنني لن أرضخ لمطالب هؤلاء المنتفعون المتكسبون من عرق الناس و جهدهم .. إنهم لم يقدموا للمجتمع أي خدمات تذكر بل على العكس كانوا وبالاً عليه .. نحن الذين قدمنا العلم و الحضارة و المعرفة للناس و المجتمع ، و بجهودنا قامت الحضارات البشرية .. إنهم هم كما هم على منهجهم باقون منذ ان أعدموا سقراط من سنين طويلة خَلَتْ ، و محاولة الفتك بأفلاطون و أرسطو و غيرهم .. و أنا كما أنا ، سأبقى كما كان الفلاسفة القدماء و سأتجرع السم الذي تجرعه سقراط إذا لزم الأمر .

- لكن أرجوك أيها المعلم ، أنا خائف من ... .

- أنا الذي أرجوك أيها المدير .. أنت لا علاقة لك بالأمر .. أنا معي عقد نظامي قانوني بيني و بينك و يحميه أحاكم بقوة القانون .. أنا أرفض طلبهم هذا و ليفعلوا ما شاؤوا .. أنت ابقَ خارج اللعبة .. هذه لعبة قذرة ابقَ أنت خارجها .

- هل هذا قرار نهائي أيها المعلم ؟؟؟ .

- نعم .. يمكنك اعتباره قراراً نهائياً .

في المساء ، أرسل المعلم إلى كاهن معبد جوبتير من يبلغه بقرار المعلم آفتيموس .

*****

كان الفيلسوف الكبير آفتيموس يلقي محاضراته بوجود حشد من الجمهور المتواجد في مدرج المسرح الكبير .. جمهور من مختلف المشارب و الأجناس .. طالب العلم و الكهل و المعلم و الفلاح و المرأة .. كان من بين الحضور ذاك الممثل الشاب الذي مثل دور الجندي الشاب في المسرحية الأخيرة الذي سقط فيها صريعاً بين أحضان حبيبته ، و من بين الحضور أيضاً تلك الفتاة الشابة الممثلة التي مثلت دور أوريسّا في المسرحة الأخيرة التي ضمت فيها حبيبها المحارب الشاب محتضراً بين أحضانها .. كان الاثنان من المعجبين بآراء و أفكار المعلم آفتيموس .

الجو ظهيرة و الشمس منتصبة في عمود السماء تنير المكان . و بالرغم من أشعتها اللافحة ، كان الجمهور يستمع بانتباه و إصغاء شديدين لما يقوله المعلم آفتيموس .. منهم من كان يسجل الكلام على كراسة خاصة .. في هذا اليوم بالذات اضطر مدير المسرح للغياب لأمر طارئ .. هكذا قال للخادم و الموظفين .

فجأة .. بدأ يُسمَع من بعيد أصوات جلبة كبيرة و ضوضاء عظيمة و بدأ الغبار يظهر مترافقاً معها .. شيئاً فشيئاً بدأت الضوضاء و الجلبة الكبيرة الضخمة يقتربان أكثر فأكثر من المكان متزامنان مع الغبار الكثيف الآخذ بالتصاعد .. ساد الاضطراب في جمهور المعلم آفتيموس و هم يلتفون يمنة و يسرة .. أماماً و خلفاً لمعرفة ما الذي يحصل .. توقف المعلم الفيلسوف آفتيموس عن الكلام و أخذ ينظر بهدوء إلى البعيد و هو يهز برأسه و يبتسم ابتسامة غامضة هادئة لها أكثر من معنى و معنى ، لكن ربما أحد لم يكن يدرك المعنى سواه .

اقتربت الجلبة و الضوضاء و الغبار أكثر فأكثر مترافقة مع أصوات صراخ و زعيق ليتضح مشهد مخيف مرعب .. جماهير حاشدة غاضبة تحمل العصي و السيوف و الهراوات و الفؤوس و السكاكين و مجامر مشتعلة بالنار .. كانوا من أتباع المعابد كلها دون استثناء .. جوبتير .. أبوللو .. فينوس .. بلوتو .. الإله الواحد .

وقف جمهور الفريقين مواجهة بعضهم بعض .. جمهور المعلم آفتيموس أعزل من أي سلاح ، و جمهور المعابد و الهياكل مسلح بالسواطير و السيوف و العصي و الفؤوس و المجامر المشتعلة بالنيران . و فجأة .. بدأت جماهير المعابد بالصياح و الشتائم و باشرت الهجوم على جمهور المسرح .

انقشع الغبار و الدخان عن مجزرة كبيرة رهيبة .. جثث في كل مكان .. صراخ و أنين من الجرحى الذين بقوا على قيد الحياة .. بقايا دخان متصاعد لمسرح محترق و محطم .. جثة المعلم آفتيموس ملقاة على قارعة مهشمة و مشوهة ببعض أجزاءها لكن ما كان واضحاً منها ابتسامة سخرية مرتسمة على وجهه .

نظر الشاب الجريح الممدد إلى الأرض و الدماء تنزف منه ، إلى حبيبته الشابة التي كانت ملقاة إلى جانبه و لا يدري إن كانت لا تزال على قيد الحياة أم لا قال لها و هو يلفظ أنفاسه الأخيرة .. أرأيت يا أوريسّا .. لقد اختلف أصحاب الديانات بعضهم مع بعض حول الإله الذي يعبدونه و لم يتفقوا يوماً قط و لن يتفقوا يوماً قط لأجل ذلك .. لكنهم جميعاً اتفقوا بعضهم مع بعض لمحاربة و قتل العلم و المنطق و الحقيقة .. آآآآه يا أوريسا لقد كان مجيئي من ساحات الوغى و الموت بين أحضانك تمثيلية مسرحية مزيفة لتسلية الجمهور .. أما الموت في ساحات العلم و معرفة الحقيقة و لأجل العلم و معرفة الحقيقة ، فها هي حقيقة واضحة ساطعة لكلينا معاً .

قال الشاب ذلك و لفظ أنفاسه الأخيرة على جسد الشابة الميتة على الأرجح .

ماء .. ماء

ما أن أشعلت الزوجة السراج المعلق على حائط الغرفة حتى تبدد الظلام و أضاء النور جوانب الغرفة كلها .. أمسكت الزوجة الجراب الجلدي الضخم و أخذت تبحث عن حوائج زوجها الضرورية للسفر لتضعها في الجراب الكبير .

خرج الزوج من الحمام و لبس أزهى الثياب ثم دخل الغرفة حيث كانت زوجته تجهز الحوائج . نظر إليها بسعادة و قال لها .. أيا زوجتي العزيزة الصالحة ، أين طبق الطعام و الفاكهة ؟؟ .

أجابت الزوجة منشغلة بتوضيب الحوائج .. ذرني و جرابك ، فسفرك الآن أهم من أي شيء .. إنك ستنطلق غداً مع انبلاج الفجر و يجب أن تكون مستعداً للسفر لا ينقصك شيء ، فزاد السفر أهم شيء يحتاجه المسافر و بالأخص ذاك الذي يسافر لأجل التجارة .. إنها أول سفرة

تجارية لك و يجب أن تكون مستعداً لها تمام الاستعداد يا بعلي العزيز و يا سبعي و قرة عيني .

- أيتها المرأة .. دعي عنك لومي و اغترابي ، فإن خير الزاد هو النصيحة .. انا الآن أحوج ما أكون إلى النصيحة ، و لهذا .. بناء عليه و عليه بناء يا زوجتي العاقلة ، سوف أدعك الآن و أذهب إلى شيخنا الوقور ليُسدني بعض النصائح تكون زادي في سفري هذا ، و عندما أعود أرجو أن تكوني قد انتهيتِ من توضيب حوائجي لنجلس سوية فاكهين مرحين و نتعشى عشاءنا الأخير قبل السفر و نقضي ليلة ممتعة قبل الرحيل .

*****

- السلام على شيخنا الوقور الجليل .. العارف التقي .

- و عليك السلام يا ولدي .. كيف هي أحوالك و أخبارك ؟؟ نُبئتُ بأنك عازم على الرحيل غداً في تجارة لك تتكسب فيها و تعتاش منها .

- أي و الله يا شيخي ، لقد نطقتَ صدقاً و تكلمتَ عدلاً ، فإني و الله عازم على الرحيل آن انبلاج بواكر خيوط الفجر يوم غد ترافقني في رحلتي بغلتي الشهباء الشقراء التي لا أمتلك غيرها و بعض النقود الذهبية

التي ادخرتها في سني عمري الماضية .. سراءها و ضراءها ، و ها أنذا آتٍ إليك في محضرك هذا لأزود منك ببعض النصائح تكون زادي في عادي و معادي و عدتي في شدتي .

اعتدل الشيخ في مجلسه و أمسك بسبحة مذهّبة و قال .. خيراً فعلت يا ولدي .. إن خير الزاد النصيحة الصادقة المخلصة ، و إنشاء الله تكون تلك سفرة موفقة مباركة السبيل ميمونة العودة و المربح .. اسمع يا بني .. عليك بالتقوى و الصلاة و الدين و العبادة و التعبد و التهجد ، و عليك بصدق المعاملة و التعامل .. و عليك بالصبر .. الصبر هو مفتاح الفرج يا بني ، و بالصبر ينال المرء ما يريد .. الصبر أبو الفضائل و الصبر زاد الفقير .. الله جل و علا أوصى بالصبر .. و أنصحك أيضاً يا بني بالجد و الاجتهاد و التفاني في العمل ، فإن قيمة الرجل في عمله .. و الاجتهاد في العمل و إتقانه يؤدي لا محالة إلى النجاح المرجو منه و الأمل المصبو إليه .. هل يوجد أفضل من العمل ؟؟ كما إنني أتوجه إليك يا بني بالنصيحة أن تكون لطيف المعشر بشوش الهيئة و الخلقة ، تتكلم بتأن و لا تحشر نفسك فيما لايعنيك ، و حافظ دائماً على وقارك أمام الناس و ابتغ الفضيلة في اتباع الوسيلة فإن ذلك من خلائق الخَلق النبيلة ، و اعتنِ بنظافة بدنك فإن النظافة من الإيمان ، و تعطّر بعطر الطِيب و ماء الرمان فإن ذلك أقوى للّبَنان و يدر عليك العطف و الحنان .. و تجنب الرذائل و الفواحش ما ظهر منها و ما بطن فإن ذلك يذهب الخير عنك و يعجل بسوء

العاقية و البوار .. و اشفق في السفر على بغلتك الغرّاء .. شقراء كانت أم سمراء و أطعمها و اجزل لها العطاء فإنها مركوبك الذي يسوقك إلى حيث تشاء و يريحك من مشقة السفر و العناء .. هذه هي نصائحي إليك يا بني فأرجو أن تنتفع بها في دينك و دنياك و آخرتك و مبتداك ، و تكون خير زاد لك في كل بعاد و معاد ، نسأل الله لنا و لك التوفيق و السداد .

- أشكرك كل الشكر يا سيدي الفاضل و مولاي الجليل .. إنني عاجز عن مكافأتكم على هذه النصائح التي لا تقدر بثمن (اعتدل الشاب في جلسته و تملص قليلاً في حركته و قال بحرج) .. بصراحة أيضاً يا سيدي فإن لي مطلب آخر صغير جداً و أنا أعلم أنه عليكم بالهين اليسير و لا يساوي شيئاً بالنسبة لشخص مثلكم نبيل جليل .

- تكلم يا ولدي .. تكلم و لا تخشَ شيئاً .. اطلب ما تريد و سل عما يحلو لك .. سل تُعطى .

- إنني يا سيدي الوقور بحاجة إلى مبلغ عشرين قطعة ذهبية فقط كي أستكمل به المبلغ الذي أعددته للرحلة ، و أنا قاصد مقامكم الكريم و أعلم تمام العلم أنكم لن تردوني خائب الرجاء ، و هذا المبلغ سأرده لكم فور عودتي من سفرتي التجارية تلك .

ابتسم الشيخ بوقار .. كان بودّي يا ولدي أن أعطيك مئة قطعة ذهبية و ليس فقط عشرين ، و لكن للأسف أنّى لي هذا المبلغ .

- و لكنك يا شيخ تمتلك دوراً و ضياعاً و أراضٍ و بساتين و ... .

- هل أنت تحاسبني على أملاكي أيها الشاب ؟؟؟!!! (صاح الشيخ بغضب و أردف قائلاً) ثم إنني أسديتك نصائح تعادل قيمة كل نصيحة واحدة منها ألف قطعة من الذهب الخالص ، فما بالك ببقية النصائح ؟؟!!! و ها أنذا أسديك نصيحة أخرى مجانية و هي .. النصائح يا ولدي أمضى و أفضل من أي مال أو فضة أو ذهب ، و كم من نصيحة لا يعدلها مال الأرض كله .. و إذاااااااااا .. إذاااا .. إذا خيّروك في يوم من الأيام فيما بين النصيحة و كيس مملوء ذهباً .. فاختر النصيحة على الفور و لا تتردد .. هذه هي النصيحة المجانية الأخيرة إليك .. وفقك الله يا ولدي و يسر لك سفرتك و تجارتك و لا تنسَ كما قلت لك .. استوص ببغلتك الغراء .. هل قلت لي إنها سمراء ؟؟ .

- كلا ... إنها شقراء .

- إذن استوصِ ببغلتك الشقراء في السفر .. وفقك الله و أدامك ذخراً لهذا الوطن و هذه الأمة ، و جعلك زمراً لجماهير أمتنا الكادحة في النضال من أجل الحرية و الديمقراطية ، ما رأيك بهذه الدعوة ؟؟ محبوكة جيداً أليس كذلك ؟؟ أليست دعوة معلم حرّيف محترف ؟؟ .

*****

جلس الرجل مع زوجته يتناولان العشاء الأخير قبل السفر .. نظرت إليه الزوجة و قالت .. هل أعطاك شيخنا الوقور النقود ؟؟ .

كان الرجل قد وضع قطعة من اللحم في فاهه عندما عاد و أخرجها و قال للزوجة .. لقد أعطاني ما هو أهم من ذلك يا امرأة .. لقد أعطاني النصائح .. النصائح التي لا تقدر بثمن ، كما إنه قد دعا لي بدعوة رائعة أظنها اخترقت حجب السماء .. أعتقد أنها كانت حول الإمبريالية و الديمقراطية و الاشتراكية و ما شابه .

- و لكن المال .. المال الآن هو .... .

- أي مال أيتها الجاهلة ؟؟ النصائح أهم من المال .. النصائح تُبادَلْ هذه الأيام بالنوق و الثيران و الحمير .. هل تعلمين أنه يوجد هنالك نصائح لا يعدلها مال الأرض كله ؟؟ هل تعلمين ذلك ؟؟ من المؤكد أنك لا تعلمين .

- خير إنشاء الله .. و الآن هيا قم و اطعم حصانك قبل السفر .

- أي حصان يا امرأة ؟؟!! أنا ليس لدي أحصنة !!! .

- حصانك الذي (بالي بالك) و الذي إذا صنته صانك و إذا خنته خانك .. ألا تريد أن تفعل ذلك قبل السفر ؟؟! .

- أووووه نعم .. نعم يا امرأتي الجميلة ، فهمت فهمت (ابتسم الرجل بخبث ثم أطفأ السراج و اتجه نحو زوجته) .

ما أن انبلجت خيوط الفجر الأولى ، حتى كان الرجل راكباً على بغلته منطلقاً بها يلوح لزوجته بالوداع .

- ما رأيك أن تأخذ معك جلد ماء إضافي ؟؟ ربما تحتاجه في سفرك .

- دعكِ من هذا يا امرأة .. إن كان لديك نصيحة فاسدني إياها و إلا فاصمتي .. وداعاً .

- وداعاً .

*****

مرت أيام ثلاثة و الرجل مسافراً في الصحراء يقطع الدروب و الفيافي ، لكنه على ما يبدو تاه في الطريق . و بدأ زاده ينفذ من الطعام و الماء شيئاً فشيئاً ، أما بغلته فلم تجد شيئاً لتأكله و لا ماء لتشربه و لم يكن هو ليغامر بإعطائها الطعام أو الماء خوفاً على نفسه من الهلاك ، و لكذلك لم يمض يومان أُخر حتى نفقت البغلة الشهباء الشقراء من العطش و فطست من الجوع . و في اليوم التالي نفق الماء و الطعام من الرجل و ظل هكذا هائماً في قيظ الصحراء و حرّها الشديد ، و ما لبث أن سقط هو أرضاً من العطش لا يقوى على الحراك مرمياً وحيداً في صحراء قاحلة . و ظل هكذا حتى وصل إلى مرحلة أخذ يحتضر بعد أن انقطع عنه الماء لفترة طويلة .

مضت حوالي الساعتين عندما صودف أن مرت قافلة تجارية بالجوار فرأى قائدها من بعيد رجلاً مطروحاً على الأرض ، فأمر القافلة بالتوجه نحوه . كانت القافلة تحتوي ثلاث جِمال محملة بصهاريج الماء الجلدية . وقف قائد القافلة بدهشة أمام الرجل و سأله .. ما بك يا أخي ؟؟!! .

أشار الرجل إلى فمه بصوت ضعيف خافت من التعب و العطش .. ماء ... ماء ... أريد ... ماء .

قال صاحب القافلة : ألا تعلم يا أخي وفقك الله أن هذه الصحراء شاسعة و طويلة فلما لم تتزود كفاية من الماء ؟؟!! .

أشار الرجل مرة أخرى إلى فمه مستغيثاً .. ماء ... ماء ... أريد ... أريد ... ماء .

أجاب قائد القافلة ناصحاً مشفقاً .. سامحك الله يا أخي و وفقنا و إياك إلى مرضاته .. لو أنك تزودت بالماء قبل سفرك هذا ، لما وقعت في هذا المحظور .. فالعاقل يا أخي الحبيب هو من يحسب حساب الأمور .. بالله عليك كيف فاتك أن تتزود كفايتك من الماء ؟؟!! .

رد الرجل بإعياء و تعب .. مااااااء ... مااااء ... مااااعع .. ماععع .

قال صاحب القافلة .. يا حسرتي عليك .. و الله إن قلبي ينفطر ألماً و حزناً و ينقطع لوعة .. آآآخ .. آآخ يا أخي .. إن هذه الدنيا غدارة .

تهدج صوت الرجل الممدد على الأرض و قال : مااااء ... مااااء يا ابن القحـ .... القحـ ... هيئ ... هيئ ... هيييييق . و لفظ أنفاسه مفارقاً الحياة من العطش .

بكى صاحب القافلة ألماً و حزناً و قال مخاطباً الرجل .. رحمك الله يا صاحبي .. و الله و تالله و بالله ، لقد أبكيتني من القهر و الحزن عليك ، و جعلت قلبي و كبدي ينفطران ألماً و حزناً و لوعة على نفوق شخص كريم المعشر جميل المحيا بشوش الهيئة مثلك و فطسانه في هذه الصحراء الغادرة .. و الله إنك رجل شهم فاضل شريف .. و الله لقد مت موتة محزنة لكنها مشرّفة ، إي ي ي ي و ربي مشرّفة .. و إنني في هذا المصاب الأليم الجلل الذي نزل بأمتنا لفقدان رجل مقدام قدم عمره و حياته في خدمة قضايا الأمة العادلة و المصيرية ، أتقدم باسم جماهير أمتنا الشعبية بأحر التعازي لعائلتك الكريمة راجياً من الله أن لا يفجعهم بعزيز .. و أني لأرجو لك حياة في العالم الآخر خير من حياتك تلك ، كما إنني باسمي و باسم أخواني أعضاء القافلة الكرام و رؤساء اللجان و الأعيان فيها ، أرجو لك منزلاً خير من منزلك هذا و نعيم و جاه و عز و ألف جارية يدغدغن لك حِصـ .. لتيك . (ثم صاح بغلمانه) احفروا قبراً لهذا الفاضل الزاهد التقي و رشوا عليه الورد و الزعفران و كللوه بأكاليل الغار ولتقم الفرقة الموسيقية بعزف النشيد الوطني . رحمنا الله و إياك يا أخي .

المنبر

صبت الزوجة القهوة الساخنة في الفنجان و وضعتها أمامه ، و ما أن فعلت ذلك حتى وضع نظارته الطبية الدائرية و التقط جرائد الصباح التي ألقيت عبر كوة صغيرة أسفل باب منزله الخارجي .

كانت تلك عادته الرتيبة المنتظمة منذ عشرات السنين عندما يستيقظ في الصباح الباكر .. هي عادة بدأت معه عندما شارك في أول بعثة تنقيب أثرية في مصر و من ثم في افريقية و بعدها في الهند و في بلدان مختلفة من العالم .. اختصاصه كان في اللغات القديمة و الرموز المنقوشة .. حاصل فيه على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف .
و منذ أن تقاعد قبل سنوات خمس و هو معتاد على سلوكه هذا .. الاستيقاظ في الصباح الباكر و ارتداء الروب ديشانبر و مطالعة صحف الصباح مع القهوة التي تعدّها زوجته التي كانت هي أيضاً عالمة آثار و حفريات حاصلة على درجة الدكتوراه .

حشا غليون المعقوف بهدوء و هو يشمّ رائحة القهوة الساخنة بمتعة ثم أشعل الدخان بولاعة ذهبية قديمة نوعاً ما تعود لمئة سنة خلت .. التقط جريدة الصباح الرئيسة الأشهر في البلاد و بدأ يقلب صفحاتها بهدوء مطالعاً ما كتب فيها بتمعن .. طالَعَ المانشيتات الرئيسة في الصفحة الأولى ، كانت أخباراً سياسية تخص الدولة و السياسة الخارجية و ما يحصل في العالم من أحداث سياسية .. عندما انتهى من الأخبار الرئيسة ، قلبَ الصفحة متابعاً قراءة ما بعدها من أخبار و أحداث محلية ، ثم انتقل إلى الصفحة التي بعدها ثم التي بعدها .

كان يدخن الغليون و يحتسي القهوة واضعاً رجلاً فوق رِجْل عندما وصل إلى صفحة الأخبار العامة و الإعلانات المبوبة .. ألقى نظرة سريعة عليها ليستوقفه أحد الإعلانات ، توقف عنده مطولاً و أعاد قراءته مرتين أو أكثر .. كان إعلاناً غريباً بعض الشيء .. أخذ مجّة عميقة من الغليون ثم نفث دخانها في الهواء سحابة بيضاء على شكل زوبعة قوية .. فكر قليلاً ثم أعاد قراءة الإعلان من جديد . كان مضمونه .. " منبر قديم من خشب الصندل العريق سوف يتم إحراقه في يوم كذا من تاريخ كذا في دار المزاد العلني الشهيرة في البلاد ، و السبب هو أن هذا المنبر القديم قد تسبّبَ بموت كل من اشتراه ، و ناهز عدد الوفيات من جراء ذلك ، العشرة أشخاص ، و هنالك اعتقاد سائد لا مجال لإنكاره أو دحضه لدى عموم الباحثين و المختصين ، أن

هذا المنبر الخشبي الأثري مسكون بروح شريرة ، و ما عزز هذا الاعتقاد هو وجود بعض الطلاسم الموجودة عليه " .

أنتهى الرجل من قراءة الإعلان ثم أعطى الجريدة لزوجته طالباً منها أن تقرأه .

أخذت الزوجة تقرأ الإعلان باهتمام و صمت بينما كان الرجل يدخن الغليون بشراهة زائدة و هو مستغرق بالتفكير . انتهت الزوجة من قراءة الإعلان ثم وضعت الجريدة على الطاولة و قالت لزوجها .. شيء غريب بالفعل !! هل هذا يمكن أن يكون حقاً ؟؟!! .

سأل الزوج باهتمام .. ما رأيك أنتِ بذلك ؟؟ هل يمكن أن يكون صحيحاً هذا الشيء ؟؟!! .

- حسب ما قرأته في هذا الإعلان و حسب المعطيات التي أوردها ، فأنا شخصياً أرجح وجود مثل هكذا أمور و لا أستغرب ذلك أبداً .. هنالك قوانين غيبية في الطبيعة لم تُحَلّ تفاصيلها حتى الآن و أنا أؤمن بهذه القوانين و أعتقد بوجودها بقوة .. أنت ما رأيك بذلك ؟؟ هل تشاطرني الرأي فيما أقول ؟؟ .

نفخ الرجل دخان غليونه و شرد قليلاً يفكر ثم قال .. أما أنا فلي رأي آخر سأتحقق منه لاحقاً .

*****

رفعت السكرتيرة نظرها دون رأسها ، عن الأوراق التي بجانبها و نظرت من فوق نظارتها الطبية إلى الشخص الذي طرق الباب .. أهلاً بك سيدي .. كيف يمكن لي أن أخدمك ؟؟ .

- أنا البروفيسور (هارولد) عالم الآثار و الرموز .. و أود ان أقابل السيد المدير من فضلك .

رحبت السكرتيرة باحترام شديد بالبروفيسور بعد أن عرّفها على هويته و قالت له بأدب زائد جمّ .. إذا لم يكن لديكم مانع ، هل لي أن أعرف السبب ؟؟ .

- نعم سيدتي .. بكل سرور .. إنه بخصوص ذلك المنبر الخشبي الأثري العريق الذي زعمتم في الإعلان انكم سوف تقومون بحرقه .

ابتسمت السكرتيرة علامة الموافقة و القبول و نهضت من كرسيها قائلة .. لحظة واحدة يا سيدي . غابت قليلاً ثم ما لبثت أن عادت و قالت بابتسامة ترحيب .. تفضل يا سيدي ، المدير بانتظارك .

تقدم الرجل نحو الباب و دلف منه إلى داخل مكتب المدير الفخم الضخم حيث نهض رجل قصير سمين أصلع من خلف طاولته مرحّباً بالرجل .. أهلاً و سهلاً بكم سيدي الكريم .. يسعدني و يشرفني زيارة رجل محترم معتبَر بمثل مقامكم .. تفضلوا بالجلوس .

جلس الرجل على كرسي بجوار طاولة المدير الذي ترك كرسيه خلف الطاولة و جلس مقابل الرجل احتراماً له .

- لقد جئت إلى هنا يا سيدي لاستعلم عن ذلك المنبر الخشبي الأثري العريق الذي زعمتم في الإعلان أنكم سوف تقومون بحرقه .. فهل ما ذكرتموه عنه صحيح ؟؟!! .

أطرق المدير بحزن و أسى واضحين و قال .. نعم يا سيدي ، للأسف الشديد فإن ما قرأته في الإعلان هو صحيح تماماً ، و نحن تبعاً لذلك و بناء على توصية بعض المختصين و بعض أعضاء المجلس البلدي للمدينة ، قررنا حرق هذا المنبر .

كان عصير الليمون الحامض الطبيعي قد وصل .. ارتشف البروفسور رشفة من كأسه ثم سأل .. ما هو منشأ هذا المنبر يا سيدي و مما هو مصنوع ؟؟ .

- حسب معلوماتي فإن المنشأ الأصلي لهذا المنبر ، هو الهند . عثر عليه أحد الرحالة الإنكليز منذ حوالي المئة عام و يدعى اللورد هاملتون . و كانت له هواية صيد النمور و الثعالب هناك ، فعثر على هذا المنبر مرمياً في معبد إحدى القرى النائية ، فأعجب به أيما إعجاب و اشتراه بثمن بخس حسب الرواية ، و جاء به إلى لندن حيث وضعه في بيته كتحفة فنية و بقي في منزله عشرات السنين لا يستخدمه .. و بعد وفاته ، انتقل هذا المنبر كميراث إلى أحد أقربائه

الذي وقع بعد فترة بضائقة مالية فقام ببيع بعض ممتلكاته و منها هذا المنبر ، في مزاد علني . و من يومها و هذا المنبر يتنقّل من مالك إلى آخر حتى وصل إلى بلادنا .. (ارتشف المدير قليلاً من عصير الليمون الحامض ثم تابع) .. أما من صنعه ، فيقال إنه أحد الرهبان الزّهاد أو (المهاتما) الهنود من أتباع إحدى الديانات الهندية القديمة صودف أنه كان ذات يوم يمشي في السوق فشاهد عسس (المهراجا) يسوقون أحد الأشخاص ليشنقوه في الساحة العامة . و عندما سأل عن السبب قيل له إنه أحد عبيد (المهراجا) و أنه تسبب بتخريب منبر الأمير حيث كان يحمله على ظهره إلى (المهراجا) كي يجلس عليه في باحة القصر ولكنه كان أثقل من أن يتحمله جسده فانهارت قواه و ناء تحت وطأته و سقط أرضاً هو و المنبر الذي انكسر ، فما كان من الأمير إلا أن أمر بإعدامه شنقاً في الساحة العامة ، فطلب (المهاتما) مقابلة (المهراجا) ليعفو عن العبد ، فقال له الأمير .. إذا أعدت لي هذا المنبر المكسور أفضل مما كان و خلال برهة قصيرة جداً ، أصفح عن هذا العبد بل و أعطيه حريته . و كان هذا طلباً تعجيزياً كما تعلم لأن الأمير كان مصمماً على قتل العبد المسكين. لكن الزاهد الهندي وافق على الطلب مشترطاً وضع توقيعه على المنبر فقبل الأمير بالشرط .. عندها قام (المهاتما) بوضع قطعة قماش كبيرة فوق المنبر المكسور ثم تلا بعض الكلمات المبهمة و الصلوات الصامتة و رفع الغطاء عنه ليفاجئ جميع الحاضرين بما فيهم الأمير

نفسه بأن المنبر المكسور قد تحول إلى منبر آخر من خشب الصندل الفاخر النفيس المزخرف و المطَعّم بالذهب و الفضة و النقوش ، و في حالة سليمة تماماً ، فاضطر الأمير إلى العفو عن العبد و إعطاءه حريته .. و يقال أيضاً إن (الهاهاما) الفقير قد قام بكتابة توقيعه على هذا المنبر ثم اصطحب العبد معه و غادرا المكان و لم يرهما أحد بعد ذلك و يقال أيضاً حسب الأسطورة .. إن الأمير قد توفي فجأة بعد اعتلائه المنبر الجديد ببضعة أيام .

كان البروفسور يصغي باهتمام بالغ و هو يستمع إلى ما يسرده مدير دار المزاد العلني ، و يسجل بعض الملاحظات على دفتر صغير كان يحمله في جيبه . توقف قليلاً يفكر ثم نظر إلى المدير و سأله .. و لكن ما قصة الوفيات أو دعنا نقول الأحداث التي حصلت بعد وصوله إلى بلادنا ؟؟؟!!!! .

- في واقع الأمر .. لقد حصلت هذه الأحداث ، أو المصائب – إذا توخينا الدقة أكثر – حصلت بعد استخدام هذا المنبر كأداة للكلام من قبل بعض من اشتروه أو أرادوا استخدامه لهذا الغرض ، أما قبل ذلك فلم يتعرض أحد لسوء ممن كانوا يمتلكوه .. و قد استقصيت أنا شخصياً عن هذا الأمر فعلمت أنهم كانوا يحتفظون به فقط كأداة للزينة أو العرض و التباهي أمام الضيوف و الزوار .. القضية يا سيدي لم تبدأ إلا عندما تم استخدامه للخطابة و الكلام من قبل بعض الذين

اشتروه و قاموا باستخدامه لهذا الغرض حيث تعرضوا إما للوفاة أو الشلل أو أمراض خطيرة .. و قد حاول عدد من رجال دين و خطباء سياسيين و غيرهم اغتلائه و لكنهم ماتوا إما بالسكتة أو الشلل أو الإغماء أو ما شابه ، و قد تنقل هذا المنبر ما بين معبد و دار علم و دار سياسة و غيرها و عندما تكرر هذا الأمر ، لم نجد مناص من اعتبار أن هنالك روحاً تسكن هذا المنبر و تبعاً لذلك تم اتخاذ قرار بحرقه و حددنا موعدا لذلك و أنزلنا إعلان في الجريدة الرسمية حول ذلك .

كان البروفسور يصغي باهتمام كبير و هو يستمع للقصة ، و قد انشدّت كل جوارحه لها .. عاود السؤال مرة أخرى .. هل يمكن يا سيدي أن تعطيني فكرة عن الذين ماتوا أو تأذوا بسبب هذا المنبر الأثري ؟؟!! .

- نعم بالطبع .. أول من مات هو أستاذ في الجامعة ، عندما تم وضع هذا المنبر في معرض الجامعة لمدة أسبوع ليطلع الطلاب عليه ، فقام الرجل و صعد المنبر و تكلم مع الطلاب الحاضرين عن بعض موجودات المعرض و فجأة سقط على الأرض ميتاً و عند فحصه ، تبين أنه قد تعرّض لنوبة قلبية .. يومها لم يشك أحد في المنبر لأنه بكل بساطة لم يكن هنالك مبرر ليتم الربط فيما بينه و بين حادثة الوفاة .. الحادثة الثانية حصلت حين جاء وفد علمي من جامعة خارجية في زيارة إلى الجامعة عندنا في العاصمة و بعد الغداء كان هنالك جلسة مماحكة

و تعارف في ساحة الجامعة حيث كان المنبر لا يزال معروضاً ، فقام رئيس الوفد الزائر ليلقي كلمة شكر للترحيب الذي تلقاه ، تلفت من حوله فوجد المنبر الذي أعجبه ، و طلب الصعود إليه ليلقي الكلمة ، و ما أن فعل ذلك حتى بدأت تنتابه بعض أعراض الدوار و التعب ، و فجأة بدأ يتقيأ و سقط على الأرض ميتاً .. جرى التحقيق بالحادثة و تم فحص الطعام خشية أن يكون مسموماً أو تكون محاولة اغتيال أو ما شابه بالإضافة إلى تشريح جثة الرجل لكن لم يكتشف شيء من هذا القبيل و تبين بعد التشريح أن الرجل قد تعرض بدوره لنوبة قلبية .. هنا لم يُشك في المنبر مباشرة ، لكن إدارة الجامعة تطيّرت منه فأعادته إلينا و فسخت عقد الإعارة .. الحادثة الثالثة حصلت عندما جاءت رحلة سياحية إلى البلد ، و كان المنبر يومها معروض في أحد المتاحف ، و عندما شاهده الدليل السياحي الذي كان يرافق الوفد ، أحب أن يشرح للسياح عن المكان و هو على المنبر ، فصعد عليه و بدأ الكلام ، و ما أن انتهى من كلامه و نزل المنبر حتى أخذ يتمايل في مشيه و ما لبث أن ترنح و سقط كالخروف على الأرض ، تم إسعافه إلى المشفى و لم يخرج منها إلا على كرسي متحرك بعد أن أصيب بالفالج .

أتم المدير سرد قصة الذين قضوا بسبب المنبر و في النهاية قال .. تم فحص المنبر نفسه من قبل لجنة خبراء مختصة علّه يكون ملوثاً بإشعاع معين أو مادة خفية ما ، لكن لم يثبت هذا الشيء أبداً .

شرد البروفسور بالتفكير و هو يقلّب ما سمعه من كلام ، في ذهنه بينما استغل صاحب دار المزاد ذلك ليستمتع بشرب عصير الليمون الحامض ، لكن البروفسور قطع عليه شرب العصير و عاد يسأل .. هل لديك لائحة بأسماء الذين ماتوا أو تأذوا بسبب هذا المنبر المذكور ؟؟ .

- نعم يا سيدي يوجد شيء بهذا الخصوص ، كما أن الصحف قد تحدثت عنهم .

- هل سبق أن اعتلى أحد ما هذا المنبر و لم يصب بسوء ؟؟ .

- كلا يا سيدي .. كل من اعتلاه أصيب بسوء و هو أولئك الذين أخبرتك عنهم .. و بصراحة ، لم يعد أحد يجرؤ على القيام بذلك .

- متى ستقومون بحرق المنبر ؟؟ .

- بعد ثلاثة أيام .. هذا مذكور بالإعلان .

- آه نعم .. لقد نسيت ذلك .. لكن لدي مطلب إذا تكرمت .

- تفضل يا سيدي .. أنا في خدمتكم قدر المستطاع .

- في الواقع أريد أن أقوم بدراسة هذا المنبر و الكشف عليه و تفحصه في المختبر الموجود في حديقة منزلي و هو مخصص لهذه الأغراض .

- أرجو أن تتقبل اعتذاري يا سيدي ، فهذا أمر ربما يكون خارج قدرتي .. فهكذا قرار يجب أن يوافق عليه أعضاء المجلس البلدي للمدينة .

- لا تقلق بهذا الشأن ، فهذا كتاب توصية من الجمعية الملكية للآثار ، و هذا كتاب توصية آخر من المعهد العالي للأنثروبولوجيا و الدراسات الإنسانية التاريخية ، و أنا عضو في هاتين المؤسستين و اسمي مشهور و بإمكانك عرض هذه الأوراق على المجلس البلدي .

- بكل سرور يا سيدي ، هكذا أنت تسهل عليّ المهمة .. اليوم مساءً أعطيك الجواب ، و إذا تمت الموافقة فسوف نؤجل حرق المنبر إلى أجل غير مسمى .

- أشكرك جزيل الشكر أيها المدير و هذا جميل لن أنساه طوال حياتي ، و أرجو إذا تكرمت أن ترسل لي أيضاً مع المنبر ورقة بأسماء الذين تأذوا بسببه و نوع الأذى الذي أصاب كل واحد منهم .

- لك ذلك يا سيدي .

في مساء ذلك اليوم ، اتصل المدير بالبروفسور و أبلغه موافقة المجلس البلدي على إرسال المنبر إليه صباح اليوم التالي و إبقائه عنده لمدة أسبوعين مرفقاً بالورقة التي طلبها عن الأشخاص الذين اعتلوه .

*****

جلس البروفسور مبكراً يتابع صحف الصباح و هو يدخن الغليون و يرتشف القهوة الساخنة التي أعدتها زوجته .. في صفحة الإعلانات استوقفه إعلان صغير ، نظر إليه بابتسامة ثم أعطى الصحيفة لزوجته لتقرأه . كان فحواه يقول إنه تم تأجيل حرق المنبر الأثري إلى أجل غير مسمى مع الاعتذار من جميع القراء . نظرت إليه زوجته باستغراب و سألته .. ما معنى ذلك ؟؟!! . ابتسم الرجل و هو ينفث دخان الغليون بزهو المنتصر و قال .. بعد قليل سوف تعرفين .

مضى من الوقت أقل من ساعة حين رن جرس الباب الخارجي للمنزل .. كانت شاحنة متوسطة تقف بالخارج و فيها المنبر الخشبي .. قاد البروفسور الحمّالين إلى كوخ في الحديقة الخلفية للمنزل ثم وقّع على إيصال باستلام المنبر و تعهُدْ بالمسؤولية الجاهه و سلامته و عدم إعطاؤه لأي كان ، كما استلم ورقة بأسماء الأشخاص الذين تأذوا بسببه و نوع الأذية التي لحقت بكل منهم .. نظر إلى زوجته و قال لها .. ليس أمامي متسع من الوقت ، سوف أباشر العمل فوراً .

بدأ أول ما بدأ ، بالأشخاص الذين ماتوا و تأذوا من المنبر .. كانوا عشرة أشخاص ، أربعة منهم ماتوا و ثلاثة أصيبوا بالشلل أو الفالج ، و اثنان تعرضوا لحوادث سير أدت إلى إصابات بليغة و عاهات جسيمة ، و واحد تعرض لأزمة صحية قوية كادت أن تودي به .

خصص يومين كاملين للاستعلام عن هؤلاء الأشخاص بواسطة شبكة الأنترنت و المراسلات البريدية و العلاقات العامة الرسمية و الخاصة . فكان أن صح ما توقعه و ما يدور في ذهنه .. الأشخاص الذين ماتوا بسبب المنبر كانوا ذوي سلوك سيء و صفات سلبية أخلاقية بالرغم من مكانتهم الاجتماعية و العلمية في المجتمع . أما الأشخاص الذين أصيبوا بالشلل ، فقد كانوا أقل منهم درجة من حيث الصفات السلبية الأخلاقية بالرغم من مكانتهم الاجتماعية و العلمية العالية . أما الأشخاص الذين تعرضوا لحوادث أليمة و أصيبوا إصابات بالغة لكنهم نجوا من الموت ، فكانوا هم بدورهم أخف وطأة من هؤلاء . و الشخص الوحد المتبقي الذي أصيب بوعكة صحية ، فقد كان الأحسن سلوكاً من بين الجميع لكن ذُكِرَ له بعض الصفات السلبية كالبخل و الحسد .

هذا ما توقعته (قال في نفسه) و هذا ما كان يجول بخاطري من أن الكتابة أو توقيع (الهاشما) هو السر الذي سوف يحل لغز هذا المنبر .. و الآن عليّ فك رموز هذه الطلاسم الموجودة على هذا المنبر .

قضى الرجل أيام ثلاثة و هو يتفحص النقوش و الزخارف الموجودة على المنبر باحثاً عن الكتابة الحقيقية التي قيل إن (الهاشما) قد كتبها و التي كان شبه متأكد من وجودها فعلاً . كانت الزخارف و النقوش تملأ المنبر من جوانبه الأربع ، كلها تصويرية تعبيرية تشبه الرموز . و

لذلك فقد كانت مهمته العسيرة الشاقة هي البحث عن الكتابة الحقيقية و استخلاصها من بين تلك النقوش و الزخارف .. كان يصل الليل بالنهار باحثاً مدققاً في المراجع و الكتب معتمداً على خبرته الكبيرة في هذا المجال ، لكنه كان يصل إلى طريق مسدود في كل مرة .

كانت النقوش و الزخارف و الرموز ، متموضعة بطريقة احترافية عالية و بشكل متداخل مموه بحيث يكون من الصعب المستصعب ، التمييز فيما بينها وإدراكها .. جرّبَ مبدأ الإسقاط البصري علّه يستطيع التمييز و الاهتداء فيما بينها لكنه ما أفلح في ذلك و ما وجد له سبيلاً و لا مخرجا .

مضى الأسبوع الأول و لم يتوصل إلى نتيجة ترتجى و بقي أسبوع واحد فقط لإرجاع المنبر . أخشى ما كان يخشاه هو الفشل في مهمته تلك .. هل معقول أنه لا يوجد كتابة أو شيء من هذا القبيل ؟؟ و إن ذلك كله أوهام و مجرد أسطورة غير حقيقية ؟؟ مستحيل .. مستحيل أنا متأكد من وجود كتابة ما على هذا المنبر .. خبرتي و إحساسي الذي لا يخطئ ينبآني بذلك .. هنالك شيفرة خاصة هي المفتاح و لا بد لي من اكتشافها .. عاد إلى مراجع اللغات الهندية و السنسكريتية القديمة ، و قام بالاتصال مع بعض زملائه في المهنة بالهند و تبادل معهم النصائح و الاستشارات .. أحدهم نصحه أن يدقق في الخصائص

الدلالية للرموز و ليس في المعاني ، و في التفريق بين خصائص الحرف و خصائص الطلسم أو الرمز ، فلاقت هذه النصيحة استحساناً لديه .

بقيت أيام ثلاثة على موعد تسليم المنبر الأثري إلى المجلس البلدي .. كانت الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل و الرجل جالس أمام المنبر يتأمله بصمت و تركيز تحت ضوء إنارة مسلط عليه و هو يدخن الغليون بهدوء .. فجأة وقع نظره على شكل مزخرف في منتصف أحد وجوه المنبر .. دقق النظر فيه و تذكر أن له دلالة سيميائية معينة لكنه لم يتذكر ماهي بالضبط .. سارع على الفور إلى كتاب ضخم عن الرموز و دلالاتها و أخذ يقلب فهارسه حتى وجد الرمز .. نعم إنه هو ، مكتوب إنه رمز بنّائي قديم يدل على ركائز الزوايا و الأضلاع في البناء و هو إشارة على البدء بالزوايا أولاً حسب ترتيب معين و من ثم منتصف الأضلاع تماماً أيضاً حسب ترتيب محدد ، كما وُجِدَ له معنى هندسي قديم يأخذ الدلالة نفسها لكن بطريقة المتواليات الخوارزمية.

ترك الكتاب الضخم من يديه و أسرع إلى المنبر و بدء بالزاوية الأولى اليمينية و رسم الشكل المصور فيها بشكل مطابق على ورقة ثم انتقل إلى الزاوية المقابلة و فعل الشيء نفسه ، ثم الزاوية المواجهة و رسم الرمز الموجود بشكل مطابق و هكذا فعل مع بقية الزوايا ، ثم انتقل إلى منتصف الأضلاع و قام بتسجيل الرموز فيها وكرر الأمر عينه مع بقية أسطح المنبر .. ما أن نظر إلى الورقة حتى أدرك على الفور أنه

أمام نص هندي قديم و ما عليه سوى العودة إلى فهارس اللغات القديمة و استخراجه .. غمرته سعادة بالغة لا تُوصف لم يستطع التعبير عنها .. نظر إلى نفسه بالمرآة ثم رفع إشارتي النصر بيديه الاثنتين مخاطباً نفسه بصمت .

بالرغم من أن الإجهاد و التعب و التركيز العقلي قد أخذوا منه أيما مأخذ في الأيام الماضية ، إلا أنه لم يُضِع الوقت فأسرع إلى مرجع اللغات الهندية و السنسكريتية القديمة و مخارجها .. عثر على اللغة المطلوبة .. إنها هي (قال في نفسه) بدأ بتسجيل الترجمة حرفاً حرفاً و شيئاً فشيئاً بدأت تظهر معاني النص .. **لا** ... **يعتليني** ... **إلا** ..... **مَن** ..... **له** ..... **معدنٌ** ..... **كخشبي** .

*****

اجتمع أعضاء المجلس البلدي في القاعة حيث نهض رئيس المجلس و تلا عليهم الرسالة التالية .. السادة أعضاء المجلس البلدي المحترمين، أنا البروفيسور (هارولد ماكين) عضو الجمعية الملكية للآثار و عضو المجمع الملكي للّغات القديمة ، أرسل لكم المنبر الخشبي الأثري مع شكري العميق و امتناني للثقة الكبيرة التي أوليتموني إياها بإعطائي

هذا المنبر الأثري لدراسته و فحصه . و قد توصلت أنا البروفيسور (هارولد) بعد دراسة عميقة و بحث و تحليل استغرق مني أكثر من عشرة أيام ، إلى اكتشاف نص قديم لإحدى اللغات الهندية القديمة و هو على شكل رقيم أو تعويذة أو صلاة ، و النص موجود في مغلف خاص ضمن الرسالة .. أنا البروفيسور (هارولد ماكين) أوصي بشدة بأن لا يُحرَق هذا المنبر بل يوضع في المتحف الملكي و يُخصَص للعرض فقط و يحظَّر استخدامه أو إعارته لأي كان لأنه يقع ضمن نطاق الآثار النادرة جداً جداً .. المخلص لكم (هارولد ماكين) ... توقيع ... .

*****

كان المتحف الملكي يعج بالزوار و هم يتنقلون من جناح إلى جناح .. من بين الزوار ، كان هنالك رجل مسن قليلاً يعتمر قبعة و يلبس معطفاً شتوياً طويلاً .. يدخن الغليون و يتكئ على عصا . كانت زوجته برفقته تتأبط ذراعه . وصل الزوجان إلى أحد الأجنحة و وقفا أمام منبر أثري مصنوع من خشب الصندل النادر و مطعّم بالزخارف و النقوش و قضبان الذهب و الفضة .. كان المنبر موضوع ضمن صندوق زجاجي كبير شفاف و مسلّط عليه ضوء باهر و محاط بحاجز معدني يمنع الاقتراب منه أو الوصول إليه و أمامه لافتة كُتب عليها

.. منبر هندي قديم من خشب الصندل الأثري النادر ، يحتوي تعويذة تقول .. **لا يعتليني إلا مَن له معدن كخشبي** .

نظرت الزوجة إلى زوجها بفخر و اعتزاز و ربتت على صدره مبتسمة ثم تابع الزوجان التجوال في المتحف .

الخروف

كان يوماً صاخباً في المزرعة الكبيرة .. الجرّار يجوب بعض أجزاءها الجرداء يعيث فيها فلاحة و تقليباً .. العمال و المزارعون ينتشرون في مناطق الأشجار المزروعة ، يقطفون الثمار أو يقلمون الأغصان أو يسقون الأشجار .. أما الجزء الثالث فقد كان مرعى أخضر كبير انتشرت فيه الخيول و الأبقار و الخراف .

كان الخروف الصغير حديث الولادة قد شب على الطوق و أخذ يتقافز هنا و هناك مرِحاً فرِحاً مستمتعاً بالعشب الأخضر الطري الغض و الماء العذب المناسب من الجداول و صنابير المياه المخصصة للسقاية .. شعَرَ و كأنه موجود في جنة الخراف .. أهله و قرابته وعشيرته و بنو قومه من حوله يمرحون و يأكلون و يستلقون تحت أشعة الشمس أو يتفيؤون بظلال الأشجار .. كان يشعر في قرارة نفسه أن هذه المزرعة هي الأرض الرحبة الفسيحة الممتدة و السماء الشاسعة ذات اللانهاية ، و الكون كله مختصر في هذه المزرعة . كان يمضي حياته كل يوم في تناول الكلأ و الأعشاب الطرية الطازجة و شرب الماء

و التنقل من مكان لآخر .. أكثر واحد أحبه في هذه المزرعة ، كان الخروف الكبير .. كانوا يسمونه كبش القطيع و أحياناً أخرى كانوا يسمونه حكيم الجماعة ، و أُخَرٌ غيرها كان يُسمى الناكح الأكبر .. بالنسبة إليه كان والده لأن معظم إناث القطيع كان ينزو عليهن و ينجب منهن .

عندما كان الضأن الصغير يشعر بالتعب من كثرة التجوال و التنقل أو الملل و الضجر ، كان يأتي إلى الخروف الكبير .. كبش القطيع هذا كان يحبه جداً لأسباب عدة منها .. أنه كان الأصغر بين القطيع و الأجمل في آن معاً . و منها أنه أخبه من أجمل نعجة في القطيع و الأكثر إيثاراً على قلبه .. نرا عليها في إحدى المرات بعد أن نطح عشيقها اليافع نطحة أصابته بالدوار وأنسته حليب أمه الذي رضعه من سنين عدة .. و منها أيضاً أن إمارات الذكاء و النجابة كانت بادية عليه تماماً ، فكان كثيراً ما يسأل و يستعلم و يطرح أسئلة تنم عم بديهة حاضرة و ذهنية وقّادة بالنسبة لضأن مثله ، و هو ما كان يثير إعجاب كبش القطيع المتزايد .

في إحدى المحاورات دار بينهما النقاش التالي ..

- أبي .. هل أولئك الذين يسمون بشر ، يتكلمون لغة مثلنا نحن النعاج ؟؟ .

- نعم يا بني إنهم كذلك .

- و هل يفهمون كلام بعضهم بعضاً ؟؟ .

- طبعاً يا ولدي إنهم كذلك .

- لماذا هم يبنون المزارع و يزرعون الأشجار و يصنعون الآليات ؟؟!! .

- هؤلاء يا ولدي سخّرهم الخالق لأجلنا نحن النعاج لكي يسهروا على مصالحنا و رعايتنا و يؤمّنون لنا الحماية .. ألا ترى كيف يبنون لنا البيوت و يعدون لنا العلف ؟؟ كما أنهم وضعوا لنا برنامجاً للضمان الاجتماعي يعد من أرقى أنواع الضمان الاجتماعي في العالم ، فهم يخصصون لنا الرعاية الطبية .. هنالك أطباء بيطرة متخصصون حصروا أعمارهم و دراستهم لأجلنا و لأجل رعايتنا و طبابتنا ، كما أنهم بنوا لنا دور للتوليد ، فعندما ولدتك أمك كان ذلك بحضور مجموعة من البشر و رعايتهم حيث قام بالإشراف عليها كادر متخصص .. ألم ترَ إلى هذه القارورة الزجاجية التي كان البشر أحياناً يرضعونك منها الحليب الاصطناعي ؟؟ .

انطلق الخروف الصغير بفرح و سعادة يقفز هنا و هناك .. يأكل قضمة عشب من هنا و قضمة برسيم من هناك . فجأة .. خطر له سؤال آخر فعاد مرة أخرى يركض مسرعاً إلى كبش القطيع

- أبي .. أبي .

- نعم يا صغيري ؟؟ .

- أنت قلت لي أن هؤلاء البشر مسخّرون لخدمتنا ، لكنني أحياناً ألاحظ أن بعضهم يأتي إلى الحظيرة و يلقي القبض على بعض خرافها و يأخذهم معه حيث يختفون و لا نعد نراهم بعدها مطلقاً ، فما هو السر في ذلك يا ترى ؟؟!! .

بلع الكبش الكبير ريقه باضطراب و تحسس رقبته بحافره ثم تمالك رباطة جأشه و قال .. هؤلاء يا ولدي خراف سيئة و تخالف القانون و لذلك يتم إلقاء القبض عليها و أخذها إلى مكان لا تعود منه بعد ذلك كيلا تؤذي غيرها و تفعل منكرات الصنع و قبائح الفعل .

أراد الضأن الانصراف ليكمل لعبه لكنها توقف كأنه خطر ببالة سؤال آخر فاستدار بقرنيه الصغيرين و حملق بالكبش الكبيرة بنظرات بريئة وادعة ثم سأل .. لماذا أنت قائد الخراف يا أبي و ليس غيرك ؟؟!! .

- لأنني أنا الأكبر سناً و الأشد قوة و الأكثر حكمة ، و لذلك أنا قائد القطيع هنا و كبشه الكبير .

- لكنني أحياناً أسمع بعض الكباش الأخرى في القطيع تقول .. إنهم هم الأجدر منك بالقيادة و هم الأقوى منك و الأكثر حكمة و معرفة و دراية (صمت الضأن الصغير قليلاً ثم قال بخجل) لا تؤاخذني يا والدي فقد سمعت بعضهم يصفك بأنك أكثر غباء من الحمار الذي يوجد في مزرعتنا .

صُدِمَ الكبش الكبير بهذا السؤال و أراد أن ينطح الضأن الصغير نطحة يلقي به فيها خلف السور ، لكنه محبته له و لذكائه كمته عن ذلك ، فكر قليلاً ثم قال .. ما هذا الهراء يا ولدي ؟؟!! هذا كلام فارغ و لا أساس له من الصحة .

- لا أدري يا أبي لكن هكذا هم قالوا .. أنا طبعاً لم أصدقهم ، حتى إن أحدهم قال إنك موجود هنا في موقعك هذا لأن البشر هم من أرادوك أن تكون هنا .. كذلك قال آخر إنهم لا يريدون كبشاً حكيماً ذكياً ، بل يريدون كبشاً غبياً مهمته أن ينكح القطيع فقط .

- كلا يا ولدي .. لا تصغ إلى هؤلاء الكباش العقيمة الفعل العديمة النفع الفارغة العقل .. هؤلاء فئة ضالّة مضلِلة ، امتلأت قلوبهم غيرة و حسداً .. . فقط لأن البشر قد اختاروني و فضلوني عليهم ، كونهم رأوني الأفضل و الأنجع للقيادة و رأوا فيّ خصال حميدة و صفات فريدة لم يروها في غيري من أكمير ... عفواً أقصد من الكباش .

- هل أنت حكيم فعلاً يا والدي ؟؟؟ .

فوجئ الكبش الكبير بهذا السؤال .. اعتراه غضب شديد ، لكنه عاد و كتم أنفاسه أكارة و غيظه الشديد .. نظر إلى الضأن الصغير بعيون محمرّة ثم عاد و ابتسم محاولاً لفلفة الموضوع و قال .. طبعاً يا ولدي أنا حكيم و لولا ذلك لما كنت كبش القطيع .

- هل البشر وضعوك في منصبك هذا لأنك حكيم أم لأنك ناكح أكبر كما يطلقون عليك ؟؟ .

- الاثنين معاً .. (قال الكبش باقتضاب و هو ينظر شزراً إلى الضأن) .

- هل صحيح يا والدي أن .... .

- هل ستذهب من أمامي أم أنطحك نطحة تأتي بأجَلَكَ و تريحني منك و من أسئلتك السخيفة المزعجة ؟؟ .

استدار الضأن الصغير بخوف و حزن و بدأت عيناه تذرفان من القهر ، ما جعل لواعج حنان الكبش الكبير تتدفق مرة أخرى بين ثنايا قرونه و أضلاعه ، فصاح بالضأن الذي هم بالانصراف حزيناً ملتاعاً .. هل ضايقك تهديدي هذا يا ولد ؟؟ .

صمت الضأن الصغير و لم يتكلم ، فعاد الكبش الكبير للكلام .. حسناً حسناً .. سوف أمنحك سؤالاً أخيراً لكن بشرط ألا تسألني أسئلة بعد الآن و بشرط أن يكون سؤالاً محترماً معتبراً يعبّر عن ذكائك و حاضرة بديهتك .. اتفقنا ؟؟ .

- اتفقنا .

- حسناً .. هات ما عندك أيها الغر الصغير .

- قل يا والدي .. ما هو اكبر درس تعلمته في حياتك كلها ؟؟ و كيف جرى ذلك ؟؟ و متى ؟؟ عسى أن ينفعني ذلك في حياتي و يكون ذخراً لي في آخرتي .

هز الكبش الكبير برأسه و قرنيه علامة الإعجاب الشديد بهكذا سؤال فوق مستوى عقل ضأن صغير .. شرد بنظره إلى المساحة الخضراء الممتدة أمامه ، يراجع ذكرياته القديمة ثم قال للضأن الصغير .. اسمع يا ولدي و انتبه جيداً لما سأقوله لك .. منذ سنين طويلة حصلت معي حادثة علمتني شيئاً يعادل أشياء كثيرة .. في تلك الفترة على ما أذكر .. أولَمَ صاحب المزرعة وليمة لأحد ضيوفه الكبار وقرر ذبح بضعة خراف لهذه المناسبة ، و للأسف الشديد كنت أنا واحد من هذه الخراف ، و كنتُ وقتها يافعاً .. ثم إلقاء القبض علينا و سوقنا إلى المكان الذي سنُذبَح فيه ، جاء حظي بأن أكون الأخير في الذبح ، فكنت أشاهد ما يحصل لرفاقي المساكين ، و حينها أدركتُ أن الدور قادم علي لا محالة ، و ما أن حان دوري بالذبح حتى قفزتُ بحركة فجائية و انطلقتُ هارباً مسرعاً من أيدي القصاب الذي كلما حاول بي يريد إمساكي .. حاول كثيرا الإمساك بي لكنني كنت في أوج شبابي و عنفوان قوتي فكنت أراوغ و أناور كطائرة حربية مقاتلة ، و عندما حاول تضييق الخناق علي ، قفزت إلى النهر القريب المجاور و وقفت على صخرة في منتصفه .. كان النهر سريعاً بعض الشيء و في نهايته شلال ، قلت في نفسي إذا اقترب مني أكثر فسوف ألقي بنفسي في النهر و أذهب إلى

الشلال و هنالك يكون لي احتمال ما ، لا أدري ما هي نسبته ، بالنجاة . لكن إن أمسكوا بي ، فهو الذبح و ربي .. و كأنه أدرك ما يجول بخاطري فوقف على الضفة و معه السكين ينظر إلي بغضب و وجه مكفهر و عيون يقدح منها الشرر.. و بعد قليل جاء المربي الذي يطعمنا الأعشاب و يقدم لنا العلف و قد كان طيباً معنا كثيراً و لم يؤذنا في حياته ، كما إنه لم يكن مع الذابحين يوم الذبح .. لا أدري من أين جاء و كيف جاء .. أخذ ينظر إلي بوجه ضاحك بشوش و هو يشير لي بيديه و يقول .. مااااع مااااع .. أي تعال و لا تخف فأنا صديقك المخلص و سأنجيك من هؤلاء القوم الذين يتربصون بك شراً .. كان قلبي يضرب بعنف شديد و كنت واقفاً بحذر شديد متأهباً لإلقاء نفسي في النهر إلى الشلال عند أي حركة يقوم بها هؤلاء .. لكن كلام صديقي المربي و بشاشة وجهه و ضحكاته الحنونة الطيبة و بسماته الرؤوفة و معمعته التي كان يناديني بها .. أزالت عني الخوف و فتحت لي أمل بالنجاة فقررت الذهاب إليه و كلي أمل أنه سيكون باب الفرج و النجاة لي من هؤلاء القوم بخاصة و أنه كان يقف على الضفة الأخرى المعاكسة لهم .. قفزت إلى الماء و تقدمت إليه و أنا أنظر خلفي إلى اللحام الذي كان يحمل السكين .. في تلك اللحظة لفتني أمر مريب ، و هو أن اللحام لم يحرك ساكناً حيث كان من المفترض أن يتقدم نحوي بل جلس القرفصاء يراقبني بهدوء و يبتسم ابتسامة صفراء لن أنساها طوال حياتي .. اقتربت من المربي الذي كان يقف بانتظاري

مبتسماً ضاحكاً حنوناً و قد زالت مخاوفي و ما أن وصلت إليه حتى قبض على قرني و جذبني بشدة و قد تغيرت ملامح وجهه تماماً ثم جرّني بعنف نحو اللحام الذي أسرع إليه و بيده السكين .. على الفور أدركت الخديعة الكبرى التي حاقت بي و الغدر الشنيع القبيح الذي بدر من المربي تجاهي .. بدأت أصيح و أصرخ بصوت عال و أبكي بكاء يقطع القلوب متوسلاً متضرعاً .. مااااع .. مااااع و الدموع تنهمر من عيني بغزارة خوفاً و ألماً من عنف المربي الذي كان يجرني إلى الذبح بقسوة و لؤم و يضحك بسخرية و تهكم .

كان الكبش الكبير يتكلم و قد انهمرت دموعه بالفعل من جراء تلك الذكرى الأليمة .. لم يحتمل الضأن الصغير ذلك المشهد فبكى هو الآخر تحرقة على بكاء والده ، لكنه توقف و سأله .. و لكن يا أبي كيف بقيت حياً حتى الآن ؟؟!! ما الذي حصل ؟؟!! .

- عندما وصلتُ إلى يد اللحام ، حصل فجأة ما لم يكن بالحسبان ، حيث وصل أحد العمال و صاح بهم أن يتركوني و شأني فقد ألغى صاحب المزرعة الوليمة لأن الضيوف قد اعتذروا عن المجيء لأسباب طارئة قاهرة .

- ما هي الحكم التي استخلصتها من هذه الحادثة يا أبي ؟؟ .

- حكم كثيرة منها .. كن على حذر من الذين يضحكون لك أكثر من الذين يعبسون فيك .. خير لك أن تعرف عدوك الحقيقي من أن تعرف

صديقك الحقيقي .. عندما يكون هنالك مايسترو فجميع الأدوار تؤدي إلى هدف واحد مهما اختلفت و تعددت و تمايزت .. فهل فهمت و أدركت أيها الصغير اللمّاح اللمّاع ؟؟ .

- نعم .. لقد أدركت و فهمت و وعيت .

المكتبة

علت الضجة و الضوضاء في سرادق العزاء الكبير ..الوقت ليلاً و الأضواء تنير السرادق القماشي من الداخل و فناجين القهوة تتراقص من فوق آيادي المعزّين الذين كانوا من فئات مختلفة و أجناس عدة ، و لا غرو في ذلك ، فالمتوفى كان من كبار المفكرين و له باع طويل في الفكر و نفس طويل في الكتابة و أثر كبير في الثقافة و حاصل على أعلى الأوسمة و الجوائز الفكرية و الأدبية و الثقافة ، المحلية منها و الخارجية ، و له اسم مرموق في محافل الأدب و الثقافة ، لكنه و بالرغم من ذلك كله ، لم يكُ ذا غنىً و مال و لم يكُ ميسور الحال لهذه الدرجة الكبيرة .. لم يرث من أحد و لم يورّث أحد .

جلّ الأحاديث في السرادق كانت عن الفقيد و مناقبه و آثاره في الفكر و مؤلفاته و كتبه التي أغنت المكتبات .

وقف الابن الأكبر بحزن مع أخوته في أول السرادق ، يستقبل المعزين و يودعهم .. كانت تتناهى إلى مسامعه كلمات عابرة في ذكر والده ، منها ما هو قريب و منها ما هو بعيد . جميعها مديحاً في والده و ذكر لمناقبه و خصاله و تعبيراً عن الاحترام له .. كان يشعر بالفخر و الاعتزاز الداخليين من جراء ذلك . و مع إنه كان حزيناً كل الحزن على فراق والده و يحمل وجهاً عبوساً متجهماً صموتاً ، فإنه ملامح شيء من السعادة و الحبور كانت تظهر كومضات خاطفة على وجهه لسماعه تلك الكلمات في ذكر والده ، لا يلبث أن يعاود إخفاءها مراعاة لظروف الموقف و خشية من سوء تقدير لدى البعض .

و مع إنه كان سعيداً أيضاً بسماع صيت والده الطيب الذكر تلهج به ألسنة المعزين ، فقد كان متوجماً حزيناً في الوقت نفسه للوضع المادي غير المريح الذي هم عليه الآن بعد وفاة رب الأسرة .. أيقن في قرارة نفسه أيضاً أن كلمات المديح و الرثاء لوالده ليست فقط لفكر والده و غزارة علمه و بحر ثقافته ، بل لكرمه و جوده على الغير و على كل من كان يقصده طالباً عوناً مادياً . فقد كان أبوه كريماً جواداً سخياً بالخير .. معطاءً يبذل ما في الجيب معتمداً على ما في الغيب ، و ربما كان ذلك أحد أهم أسباب عدم تخطيهم خط اليسر المادي و الاقتصادي .. أيضاً شعر بالفخر و الاعتزاز عندما تناهت إلى مسامعه كلمات الإطراء و المديح بكرم والده و جوده و سخاء يده من قِبَل بعض الحاضرين مع علمه الأكيد أن ذلك كان من عوامل عدم استقرارهم المادي .

فجأة تناهت إلى مسامعه عبارة لفتت انتباهه جيداً و أعارها جل اهتمامه و سمعه و توقف عندها مطولاً .. عبارة لم يدرِ من قالها بالضبط ، تناهت إليه من بين عبارات المديح و الإطراء و الثناء على والده لكنها لم تكن عبارة مديح أو ثناء أو إطراء بل كانت باتجاه آخر خارج هذا المجال تماماً ، كانت وصف من أحد الحضور لمكتبة والده الراحل و إعجابه بها و قوله أنها تحوي كتب تساوي قيمة مادية عالية جداً إذا ما تم بيعها .. شرد بهذه العبارة يفكر حتى أنه نسي كل ما قيل من مدح و ثناء و إطراء بحق والده ، لا بل شرد حتى عن المعزين لوهلة .

*****

في صالون المنزل مساء ، جلست العائلة تحتسي الشاي بهدوء و صمت ، الأم و أولادها الشبان الثلاثة .. كانت فترة العزاء قد انتهت و انصرف المعزين و لم يعد هنالك من واجب للتعزية .. كان إحساس الزوجة المترملة المتشحة بملابس السواد أن كل أولئك الناس قد ذهبوا بذهاب زوجها و لن تعد تراهم بعد الآن .. كأنهم أشباح كانت ملازمة له في حياته و من ثم تلاشت و اختفت في ارتحاله و لم يعد لها وجود .. انتابها إحساس خفي بأن تهيء نفسها لوحدة طويلة صامتة قاتلة .

الابن الأكبر في تلك الأثناء شارداً يفكر في شيء آخر مختلف تماماً عما تفكر فيه أمه .. عقله كان في الزواج المقبل عليه من خطيبته الحالية ، كان قد قرر أن يسكن و زوجه في المنزل مع والدته كونه لا يمكن له تأمين مسكن جديد .. الوالدة مرتاحة للفكرة لسبب بسيط .. أنها مرتاحة للخطيبة بعد أن درستها مطولاً و عاينت خصالها و نفسيتها فتأكد لها أنه يمكن التعايش معها بأمان و اطمئنان و أنها كنّة المستقبل و أنيسته و جليسته في آن معاً .

مرت فترة من الصمت و الجميع يحتسي الشاي بهدوء .. فجأة قطع الابن الأكبر حبل الهدوء و كسر حاجز الصمت قائلاً .. أمي .. لقد فكرت مطولاً بتكاليف الزواج و مصاريف المنزل .. و قد توصلت إلى حل مبدئي مؤقت .

- حل ؟؟!! . (سألت الام باستغراب) .

- سوف أبيع المكتبة .

- المكتبة ؟؟!! أية مكتبة هذه ؟؟!! .

- مكتبة والدي .

- مستحيل .. ما هذا الهراء ؟؟!! أمجنون أنت ؟؟!! .

- كلا يا أمي بل أتكلم و أنا بكامل قواي العقلية .

- بل أنت لست بكامل وعيك .. يبدو أن موت والدك قد أثّر عليك بطريقة عكسية .. ثم بأي حق تتصرف بشيء هو ليس ملكاً لك ؟؟!! .

- بل هي ملكي يا أمي .. لا تنسي أن المكتبة هذه قد أصبحت ملكي بعد وفاة والدي و هي ستؤول لي عاجلاً أم آجلاً بالميراث ، و كما تعلمين فإن القراءة و الكتابة هما آخر اهتماماتي .. إنني لم أفتح كتاباً في حياتي .

ابتسمت الأم بسخرية و قالت .. نعم يا ولدي أعلم ذلك جيداً .. أعلم أنك لم تقرأ كتاباً واحداً في حياتك و كل اهتماماتك هو الأغاني و الموسيقى و برامج القنوات الفضائية التافهة .. لطالما تحسّر أبوك على ذلك ، لكن لا عجب في هذا .. فمن أخذ البلاد من دون حرب ، سَهُلَ عليه تسليم البلاد .

- أرجوك يا أمي فكري قليلاً بالموضوع .. ماذا سنفعل بهذه المكتبة ولا أحد في المنزل يقرأ ؟؟!! أنت تعلمين همّ الحياة و مشاكلها ، لا أحد لديه الآن متسع من الوقت لقراءة صفحة ، فما بالك بكتاب ؟؟!! كما إن محبتي لوالدي و اعتزازي به لا علاقة له بذلك و لا يمنعني من بيع المكتبة في هذا الوقت العصيب ، بدل أن يأكلها العث و تأتي عليها عاديات الزمن و الرطوبة و الغبار .فكري قليلاً و سترين أن هذا هو الحل الأنجع .. دعي العواطف جانباً و انظري للموضوع من زاوية المنطق و الواقع و ستجدين ما هو صحيح في كلامي و ما هو منطق و

صواب .. أنا واثق و متأكد لو كان والدي يستطيع العودة الآن ، لبارك لي في ما أقول و استحسَنه .

نظرت الأم إلى ولدها الأكبر ، فرأت في عينيه تصميم كبير و إصرار لا يمكن ردعه عن بيع المكتبة ، و أدركت أنها إذا ما مانعت ولدها في ما هو مصمم عليه فسوف تدخل معه في مواجهة محتّمة لا تحمد عقباها و أنه لا طائل من ذلك ، فارتأت أن تختصر الطريق و تنسحب من المواجهة التي قد تُفقدها ولدها ، فقالت بحسرة و ألم .. افعل ما بدا لك يا بني .. هذا هو القدر و هذا هو الواقع .. إذا ذهب المرء ذهبت آثاره معه .

في اليوم التالي كان الشاب في مكتب إحدى الصحف الإعلانية الشهيرة و الأكثر انتشاراً و قراءة في البلد ، حيث وضع المكتبة بالبيع ذاكراً اسم صاحبها الأساس و ما فيها من مؤلفات و السعر المطلوب لها مع رقم هاتفه الجوال .

مرت الأيام و لم يتقدم أحد لشراء المكتبة .. كان الشاب ينتظر بفارغ الصبر أن يرن هاتفه الجوال في أية لحظة ، لكن الهاتف لم يفعل و بقي صامتاً أخرس لا يتكلم . أعاد مرة أخرى وضع الإعلان في الجريدة و في جريدة أخرى أقل شأناً ، لكن الهاتف كان مصراً على الصمت .

مر حوالي الشهر و لم يطرق أحد باب المكتبة فأدرك الشاب أنه ربما قد وصل إلى طريق مسدود في هذا الشأن .. أشارت أمه عليه بالنصيحة

و القول الصائب .. ها قد رأيت يا ولدي بأم العين و لمست لمس اليد بطلان مشروعك هذا ، فدع هذا الأمر يا ولدي و اغسل يدك منه و لا تتعب فما لا تناله .

صاح الولد بغضب .. بل ها قد رأيتِ أنتِ بأم العين و لمستِ لمس اليد بطلان نظريتك العلمية تلك .. انظري لهذه المكتبة القيّمة العلمية التي تتفاخرين فيها .. لم يتقدم لشرائها أحد و هذا دليل على إنه لا أحد يقرأ هذه الأيام و لا أحد يريد العلم .

أجابت الأم بنبرة هادئة حنونة مشفقة على ولدها .. يا بني .. لا يضير العلم شيئاً إن الناس تركته و طلبت الجهل و لا يغير من المعادلة شروى نقير .

- على كل حال سأمهل هذه المكتبة ثلاثة أيام ، فإن لم يتقدم أحد لشرائها فسوف أبيعها لمتجر الخردوات المستعملة .. لقد أخبرته عنها و وافق على شرائها بثمن قليل بعض الشيء .. لكن لا بأس فقد بدأت هذه المكتبة توتر أعصابي بوجودها هنا في هذا المنزل .. أشعر و كأنها كابوس بدأ يجثم على صدري .

فكرت الأم قليلاً بصمت ثم أومأت برأسها و قالت .. حسناً تفعل يا ولدي .. انتظر أيام ثلاثة و بعدها اصنع ما يحلو لك .

في مساء اليوم التالي ، كان الشاب جالساً في بهو صالون المنزل مستلقياً على الأريكة واضعاً قدميه فوق الطاولة ينظر إلى المكتبة بصمت .. فجأة رن جرس الهاتف الجوال في جيبه .. في البداية لم يتوقع أن يرن هاتفه و لم يدرك الأمر جيداً لكنه ما لبث أن نهض بسرعة و أخرج الهاتف .. أتاه صوت أجشّ قليلاً ، من الطرف الآخر .. مرحباً .. هل أنت صاحب الإعلان في الجريدة بخصوص بيع مكتبة ؟؟ .

- نعم .. نعم أنا هو ، من المتكلم ؟؟ . (أجاب بلهفة) .

- أنا ؟؟ .... تستطيع أن تناديني بـ .. مؤمن عِلم .. .

أطلق الشاب ضحكة خافتة مكبوتة و قال .. اسم غريب بعض الشيء !! هل هو اسم حركي ؟؟!! .

- نعم .. هو اسم غريب في هذا الزمن الغريب .. متى يمكنني أن أرى المكتبة يا سيدي ؟؟ .

- في أي وقت تشاء .. و إذا أردت ، يمكنك المجيء الآن .

- ألا يزعجك ذلك ؟؟ الوقت مساءً الآن ؟؟ .

- كلا .. أبداً يمكنك المجيء و سأعطيك العنوان .

مضى حوالي النصف ساعة عندما دق جرس باب المنزل .. فتح الشاب الباب و هو متلهف لرؤية مؤمن العلم هذا و كيف هو شكله ..

كان رجلاً في الخمسينيات من عمره أشيب الشعر ذو لحية نصفية حول الذقن .. كان الشاب و والدته في استقباله .. عرّف الرجل عن نفسه بأدب جم ثم دخل إلى الصالون و وقف أمام المكتبة .. نظر إليها مطولاً متفحصاً ثم نظر إلى الشاب و قال .. حسناً ، كم تريد ثمنها أيها الشاب ؟؟ .

- ألفي دولار يا سيدي غير قابلة للتفاوض .

- حسناً أيها الشاب .. قد قبلت بالسعر و لكن عندي شرط واحد لا أتنازل عنه .. و هو مفيد لك بكل الأحوال .

- ما هو ؟؟؟!!!! .

- أنا من عادتي شراء الكتب و المخطوطات .. فعندي الهتمام بذلك منذ نعومة أظفاري .. و لكن من عادتي أيضاً أن أختبر البائع في الوقت نفسه ، فإذا كان على سوية ثقافية عالية ، اشتريت الكتب منه لأن ذلك يعني أن الكتب التي تحوزته هي كتب مميزة حتماً و تستحق القراءة ، أما إذا لم يكن كذلك فهذا يعني أن الكتب التي تحوزته هي ليست ذات قيمة ، فلا أشتريها (صمت الرجل قليلاً يحك أرنبة أنفه ثم قال) و لذلك عرضي إليك أيها الفتى هو الآتي .. سوف أختبرك في عدد من الكتب تختارها أنت و كل كتاب أمتحنك فيه و تكون مطلعاً على تفاصيله و معلوماته أعطيك عنه مئة دولار لقاء

جهدك و بعد عدد معين من الاختبارات .. إما أشتري أو لا أشتري ، و في الحالتين تكون أنت الرابح فما رأيك ؟؟؟ .

كان ذلك عرضاً مفاجئاً للشاب الذي أخذته الحيرة و لم يدرِ ماذا يقول و كيف يجيب .. نظر إلى أمه بحيرة ، فأومأت إليه علامة الموافقة و القبول .. نظر الشاب إلى الرجل و أومأ بدوره علامة القبول .

- حسناً أيها الفتى .. اختر الكتاب الذي تريده من المكتبة و ليكن حول البحوث التاريخية و الدينية و السياسية حصراً ، كوني أنا أهتم بهذه المجالات ، و تعال إلي بعد أيام أربعة لأمتحنك فيه ، فإذا اتضح لي أنك ملم به و بمضامينه ، نقدتك المئة دولار فوراً و انتقلنا من فورنا إلى الكتاب الثاني و هكذا .. أما إذا اتضح لي أنك لا تعرف شيء عن مضمونه فستحت الاتفاق بيني و بينك حول المكتبة و يذهب كل منا في حال سبيله .. هذه بطاقة فيها عنواني و هاتفي .. أراك بعد أربعة أيام .. إلى اللقاء .

غادر الرجل و بقي الشاب مع أمه .. نظر إليها بحيّرة و ذهول و قال .. عجيب غريب .. هذا أغرب عرض أسمع به في حياتي .. هل هذا الرجل جادّ فعلاً في قوله ؟؟!! .

أجابت الأم بثقة .. نعم يا ولدي ..يبدو أنه جاد و إلا لما تكلّف مؤونة الاتصال بك و المجيء إلى هنا .. ثم أنه يبدو عليه علامات الوقار و اليسر المادي ، لذلك فلا يُظَنَ به ظنون السوء .. فاتكل على

الله يا ولدي و امض في هذا العرض عسى الله أن يهيئ لك من أمرك رشداً .

- لكن يا أمي أنّى لي أن أفعل ذلك و أنا لم اقرأ كتاباً واحداً في حياتي و ليس لي باع في الثقافة و المطالعة ؟؟!! فأنا عكس ما كان عليه والدي رحمه الله ؟؟!! .

أجابت الأم مشجعة ولدها .. لا بأس عليك يا ولدي أنت جرب و لن تخسر شيئاً و سوف أكون لك أنا خير معين و خير دليل .. هيا يا ولدي انتق كتاباً مما أشار عليك به الرجل و لا تضيع الوقت فليس أمامك متسع منه .

نظر الفتى إلى المكتبة بضياع و تيه و قال .. تخيّري لي أنتِ يا أمي فأنت تعرفين أكثر مني في الثقافة و الفكر .. أنت رفيقة والدي في هذا المضمار .

ابتسمت الأم بحنان و اتجهت إلى المكتبة و أخرجت أحد الكتب حول تاريخ البشرية و الإنسان و الحضارات و أعطته لولدها .. هذا كتاب شيق و ممتع اقرأه بروية و تمعّن و أنا سوف أساعدك إن احتاج الأمر لذلك .. ابدأ على بركة الله و سوف أعد لك الآن الشاي الساخن لتستمتع بالقراءة ، ثم لا تنس .. هناك مائة دولار بانتظارك .

أمسك الشاب الكتاب بيد مرتجفة قليلاً و جلس على الأريكة و فتح الكتاب و بدأ بالقراءة .

*****

طُرق الباب بأدب و دخلت السكرتيرة قائلة .. سيدي هنالك شاب بالخارج معه كتاب و يطلب مقابلتكم لأجل مكتبة حسب قوله و يقول أن هنالك موعد معكم اليوم .

ابتسم الرجل بهدوء و قال .. أدخليه .

رحب الرجل بالشاب الذي دخل و قد بدا عليه شيء من الارتباك و الإعجاب بأثاث المكتب الفخم .. تفضل أيها الشاب ، أهلا و سهلاً بك في مكتبي .. هل انتقيت كتاب و قرأته ؟؟ يبدو أنك فعلت ذلك حقاً ، فأنا أرى في يدك كتاب .. أرني إياه من فضلك .. أووووه أنه كتاب قيم و يستحق القراءة .. حسناً .. حدثني عن ملخص ما قرأته و فهمته من هذا الكتاب من فضلك .

بدأ الشاب يحدث الرجل عن موضوع الكتاب و محتوياته و الرجل ينظر إليه بصمت و يتأمله بهدوء . و عندما انتهى من الكلام ، نظر إليه الرجل بإعجاب و قال .. رائع .. رائع جداً أيها الفتى .. هذا جيد

بالنسبة لشخص مثلك يقرأ كتاب لأول مرة .. لولا ضيق وقتي و مشاغلي الكثيرة لكنت جلست معك أكثر .. (قال الرجل ذلك و أخرج من جيبة ورقة نقدية من فئة المائة دولار) .. تفضل هذه مئة دولار مكافئة لك .. تعال إلي بعد أربعة أيام في مثل هذا الوقت و معك كتاب جديد .

انطلق الفتى إلى المنزل سعيداً فرحاً لا يسع فرحته شيء .. في الطريق مال على أحد المطاعم و اشترى دجاجاً مشوياً على الفحم و فاكهة و رمان و طاس عسل و اتجه إلى المنزل .. وضع الطعام على الطاولة و قال لأمه بفخر و اعتزاز .. انظري يا أمي ما أحضرت لك بالمئة دولار التي أعطاني إياها الرجل .. لقد أثبتت كفاءتي أمامه و كان مسروراً .. لقد بقي خمسة و سبعون دولار معي .. خذيها و اصرفي منها لبعض شؤون المنزل .

ابتسمت الأم و قالت .. يبدو يا ولدي أن للعلم مآلاً و نتاجاً حسن .

*****

دخلت السكرتيرة و أعلمت الرجل بقدوم الشاب و معه كتاب جديد ..

- حسناً دعيه يدخل .

دخل الشاب و ألقى التحية على الرجل الوقور و وضع أمامه الكتاب قائلاً .. هذا كتاب جديد آخر قرأته ، أنه يتكلم عن تاريخ المعرفة و العلم عند الإنسان منذ القديم و حتى الآن .

هز الرجل رأسه بإعجاب و قال .. تفضل أيها الشاب أسمعنا .. إني لك لَمِن المُنصتين .

بدأ الشاب يتحدث عن الكتاب بإسهاب و شيء من تفصيل ، و الرجل ينصت إليه ، حتى انتهى من الكلام .. سأله الرجل بضعة أسئلة فأجاب الشاب عليها بثقة . مد الرجل يده إلى جيبه و أخرج مئة دولار أعطاها إلى الشاب محدداً معه موعداً جديداً مع كتاب جديد بعد أربعة أيام .

استمرت لقاءات الشاب مع الرجل ، كان كل لقاء يتمحور حول كتاب جديد يشرح فيه الشاب ما قرأه فيه للرجل و يتناقشان في مضمونه يخرج بنهايته الشاب ظافراً بمئة دولار .. كانت سعادته في تلك العلمية ما بعدها سعادة و فرحته في ذلك غامرة لا تعدلها فرحة أخرى .. و لكن .. و لكن .. بعد اللقاء الثامن ، بدأت تنتابه تغيرات غريبة في نفسيته تتخللها أعراض حزن و كآبة شديدين تنزل فيهما أحياناً دموع ساخنة على خديه .. لاحظت أمه ذلك و سألته عن السبب فلم يجب و التزم الصمت .

كان الشاب قد انتهى من قراءة الكتاب العاشر و مناقشته مع الرجل و قبضه مئة دولار لقاء ذلك .. كان الكتاب يدور حول الظلم الاجتماعي و الثورات و الحروب البشرية خلال التاريخ .. جلس الشاب في صالون المنزل يشرب الشاي بصمت و كآبة مع والدته ، فجأة دق جرس باب المنزل .. كان الرجل مؤمن العلم .. دلف إلى غرفة الاستقبال و قال للشاب بحضور أمه .. أهنئك أيها الشاب ، لقد نجحت في الاختبار و لذلك قررت أن أشتري منك المكتبة بألفي دولار كما اتفقنا و أنا جاهز الآن لاستلام المكتبة .

نظر الشاب إلى المكتبة ثم إلى صورة والده المتوفى المعلقة على الحائط و فجأة انتابته نوبة بكاء شديدة فانهار راكعاً على الأرض و هو ينتحب و يبكي بنشيج عالٍ مؤثر .. أسرعت الأم إلى ولدها لتمسك به لكن الرجل أشار إليها بأن تبقى في مكانها ، ففعلَتْ .

أخذ الشاب يتمتم و يقول .. سامحني يا أبي .. أرجوك سامحني .. أتمنى من كل قلبي لو يقدّر الله بمعجزة أن تعود إلي فقط لساعة واحدة .. ساعة واحدة فقط ، لأعوض عن جهلي بك طوال تلك السنين التي مضت و أعوض ما فقدته فيك . ثم نظر إلى الرجل و قال له .. آسف يا سيدي .. أنا لم أعد أريد بيع المكتبة ، و المبالغ التي قبضتها منك لقاء الكتب التي قرأتها أنا مستعد لإرجاعها لك بالتقسيط .

سألك الرجل باهتمام .. لكن أنا مستعد أن أعطيك عن كل كتاب في المكتبة مئة دولار ، فما قولك ؟؟ إنه عرض لا يمكن أن يأتي مرة أخرى ، فما قولك هاااه ؟؟؟ .

- و الله لو أعطيتني عن كل كتاب ألف دولار لما بعتك المكتبة ، فما قولك الآن .. هاااه ؟؟؟ .

ابتسم الرجل ابتسامة العالم العارف الواثق المدرك و سألك بهدوء و اطمئنان .. و لماذا يا فتى ؟؟؟ .

نظر الشاب إلى الرجل ثم انحدرت دمعة حارة ساخنة على وجنته و قال .. هل رأيت يا عمّاه .. يا مؤمن العلم .. هل رأيت يوم في حياتك كلها أو سمعت عن أعمى يرتد إليه بصره و بصيرته ثم يقبل أن يعود إلى عماه و عمهه لقاء حفنة من الدولار ؟؟؟!!! لاااااااا و ربي لن أفعلها بعد أن ذقت طعم العلم و المعرفة .. بعد أن خرجتُ من غياهب الجهل إلى نور المعرفة .. هل تعلم أنني كلما قرأت كتاباً و ذهبت إليك لأناقشه معك كنت أشعر بنفسي أني أنتقل من عالم إلى عالم آخر مختلف تماماً و أشعر أن الناس من حولي صغار أقزام .. لقد احتقرت نفسي و احتقرت عالمي و بكيت على ما فاتني من سنين مضت و أولها والدي الذي كنت به من الجاهلين .. إن العلم يا مؤمن العلم بحر لا يعرفه إلا من يلقى به بين تلاطم أمواجه يصارع و يكدح ليطفو و يسبح إلى البر الآخر .

ابتسم الرجل و قال .. أيها الشاب لقد انتهت مهمتي الآن .. أنا يا ولدي صديق لوالدك منذ القدم .. والدك علمني الكثير . و بصراحة لقد جاءتني أمك السيدة الفاضلة المحترمة و أخبرتني عن عزمك ببيع المكتبة لبائع خردوات لقاء مبلغ زهيد ، فقلت لها أني سوف أقوم بهذه العملية التي إذا غيرت من طباعك و أنارت لك طريق الحق و الصواب ، فعلتَ ما أنت فاعله الآن و امتنعتَ عن بيعي المكتبة .. أما إذا لم تغير فيك شيئاً و من خصالك أمراً ، فأني سأشتري المكتبة و أمنح كتبها إلى المكتبة المركزية توضع فيها و تسجل باسم والدك و بذلك لا يضيع تعب والدك و لا ذكره ، طيّبَ الله ذكره .. و يبدو يا ولدي أن الله شاء لك أن تهتدي إلى نور العلم و تبقى المكتبة نبراساً لك و في بيتك . و إكراماً لذلك فإني قررت أن أتكفل بمصاريف زواجك كلها و أدبر لك عملاً في إحدى الشركات .. تعال إلي بعد غد لنتناقش في ذلك .. يا بني .. الجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً لكن العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً .. وفقك الله و إلى اللقاء بعد غد .

هنا الحقيقة

أين الحقيقة ؟؟ سأل نفسه .. ما هي الحقيقة ؟؟ سأل نفسه .. كيف أعرف الحقيقة ؟؟ تساءل في نفسه .. هل هنالك حقيقة حقاً ؟؟ لماذا كلُ يدعي الحقيقة و ينسبها إليه ؟؟ لا بد لي من معرفة الحقيقة كي أرتاح و أريح نفسي المتقدة الهائجة لمعرفتها ، لكن كيف أبدأ و من أين أبدأ ؟؟ و من سأسأل ؟؟ لقد سألت الكثر الكثر و المشكلة أن كل شخص لديه حقيقة جاهزة في قرارة نفسه ، أُخبِرَ عنها مذ كان صغيراً لم يبلغ الحلم ، فتشبث بها و غرسها في عقله ، فنمت معه و كبرت ثم شبت و هرمت ثم ماتت و دُفنت معه .. لا يتنازل عنها .. لا يقبل بغيرها .. يرفض ما عداها .. يعبدها و يعشقها .. ينكحها فتحبل منه و تلد له حقائق عدة صغيرة .. يجعلها ملك يمينه .. يطأها متى شاء و متى اجتاحته عوارم النزوة و الشبق الغرائزي .. لا بد لي من أن أعرف الحقيقة .. لا بد لي من أن يكون لي حقيقة خاصة بي ، أعرفها و أعتنقها و أتسيّد بها و أتصيّد

فيها .. يجب أن أفعل شيئاً بهذا الشأن ، و لكن كيف ؟؟ و بأي وجه و طريقة و أسلوب ؟؟ .. من سأتبع لأجل ذلك ؟؟ من كان عبر التاريخ يبحث عن الحقيقة و يعمل جاهداً لأجلها ؟؟ من هم الأشخاص الذي كانوا يفعلون ذلك ؟؟؟ آآآآه وجدتها .. إنهم الأنبياء و الفلاسفة و الحكماء .. نعم إنهم هم .. هم بالضبط أكثر الناس الذين اهتموا بالحقيقة و عملوا لأجلها و تحدثوا عنها و قالوا أنهم يمتلكونها .. هكذا هم قالوا .. لكن ما هو الأسلوب الذي اتبعوه لأجل ذلك ؟؟ ماذا فعلوا لأجل أن يصلوا إلى الحقيقة ؟؟ من المؤكد أن هنالك أشياء و أساليب اتبعوها حتى وصلوا إلى الحقيقة كما قالوا .. ماذا فعلوا يا ترى ؟؟ ماذا فعلوا ؟؟؟ ماذا ؟؟؟ آآآآآآآه نعم .. لقد وجدتها .. كانوا يخرجون إلى البرية يبحثون عن الحقيقة .. في الغابات و الجبال و البحار .. معتزلين الناس و البشر لأجل ذلك .. ربما كي يصلوا إلى الحقيقة وحدهم ولا يشاركهم أحد فيها ، فيرتفع شأنهم بذلك بين الناس الذين يسعون لنيل رضاهم و كسب ودهم و بذل الاحترام و التبجيل و ربما حتى المال ، لهم .. إذن .. كل ما عليّ القيام به هو أن أيمم شطر البراري و القِفار و أهيم فيها سائحاً متجولاً باحثاً منقّباً عن الحقيقة حتى أجدها .. و لكن أليس ذلك متعباً مجهداً لي صعباً عليّ ؟؟ فأنا لست معتاداً على صعاب الأمور و مشقاتها .. أنا معتاد على الاسترخاء و الاستلقاء و التمدد و الأكل حتى يمتلئ جوفي و ينتفخ كرشي .. لكن ما الضير في ذلك ؟؟ يمكنني اعتبارها رحلة سياحية في جبال

الألب مثلاً و في الوقت نفسه أخفف من كرشي و أزيل الدهون من بدني و الكوليسترول من دمي و ربما أعثر على كنز أو فتاة حسناء أتزوجها أو في أحسن الأحوال أعيش معها ساعة وصال نترع فيها كؤوس الحب و الغرام و النشوة .. حسناً و لكن متى أبدأ ؟؟ هممممم سأبدأ من يوم غد في رحلة سياحية إلى الغابات و الجبال القريبة المجاورة و سآخذ معي عدة من أطباق الشيكولاتة المغذية المحشوة بالكريمة و الفستق و البندق و جوز الهند و الكاراميل ، و لا بأس بقليل من العطر و البارفان .. لا بد من أن يكون مظهري جيداً لائقاً .. لعلي إذا التقيت بالحقيقة و كانت امرأة حسناء بارعة الجمال ، أتزوجها و هكذا احتكرها لنفسي و أمنع غيري من الوصول إليها .. حسناً .. فلنبدأ من الغد .

*****

ما أن بدأت خيوط الفجر تتسلل في الصباح الباكر حتى انطلق نحو الجبال القريبة .. خطط لنفسه أن يعود عند الغروب قبل المساء . ظل يمشي و يمشي صاعداً الجبل هابطاً المنحدرات قاطعاً الجداول و السواقي .. كان يمشي الهوينى أحياناً و أحياناً يجلس مستريحاً هنيهة من الوقت .. وصل إلى أماكن لم يرها قبل .. الطبيعة آخذة ساحرة .. اشتم قليل من

الهواء المنعش و أخرج قطعة شيكولاته محلاة بأطايب المحاشي من جوز و لوز و فستق و كريمة و قشدة و قضم منها بلذة و هو يدور بعينيه بحثاً عن الحقيقة .. تابع مشيه إلى الأمام .. ظل يمشي و يمشي حتى لاحت له من بعيد بقعة خضراء و في وسطها شجرة حور كبيرة طويلة فارعة شكلها غريب و ملفت للنظر .. شعر في نفسه أن هنالك شيء يستوجب النظر فيه عندها .. مشى بسرعة باتجاه شجرة الحور حتى و صل إليها .. تفحصها فوجد على جذعها لافتة متوسطة مكتوب عليها ..هنا الحقيقة .. إذا أردت الحقيقة ، اذهب ١٢٠٠ متر باتجاه السهم . نظر إلى حيث أشار السهم ، كانت دغلة كثيفة أمامه تعيق تقدمه لكنه صمم و تقدّم الدغلة بصعوبة ملحوظة .. مشى و مشى حتى وصل إلى صخرة كبيرة مكتوب عليها .. إذا اردت الحقيقة اذهب ١٨٠٠ متر باتجاه هذا السهم .. نظر إلى الاتجاه فوجد تلة صغيرة يفصل ما بينه و بينها حقل من الأشواك الكثيفة لا يستطع قطيع من الفيلة أن يطأه ، لكنه صمم و قرر المضي في سبيله فسار و قد أنهكه التعب و الجوع .. ضرب يده إلى جيبه و انتشل منها قالبين شيكولاته و أخذ يأكل منهما بنهم شديد .. اجتاز حقل الشوك و قد توخرّ جسده كله و تمزقت بعض من ثيابه .. وصل إلى المكان حيث شجرة سنديان عجوز هرمة مضت عليها عاديات الزمن مكتوب عليها الحقيقة على بعد ١٥٠٠ متر باتجاه هذا السهم .. نظر بإعياء و تعب حيث المكان فلاحت له مجموعة أشجار حراجية من

بعيد كأنه رآها من قبل .. انتابته نوبة غضب و تذمُرْ لكنه كبتها في صدره و تابع المسير .. ظل يمشي و يمشي باتجاه الهدف و قد قضم كل قطع الشيكولاته و شرب ما تبقى لديه من زاد الماء .. كان يعثر أحياناً بغصن شجرة و أحياناً أخرى بحجر أو حفرة فيسقط على الأرض مرتطماً بها بقسوة و ألم .. مشى و مشى حتى وصل إلى المكان و كانت المفاجأة الكبرى .. لقد كان نفس المكان الذي انطلق منه .. الساحة نفسها و شجرة الحور نفسها و اللافتة نفسها المكتوب عليها .. هنا الحقيقة .. اكتشف أنه عاد إلى نفس المكان الذي انطلق منه .. وقف متمايلاً مترنحاً ثم أطلق صرخة مدوية مرعبة ارتج لها فضاء الجبال المحيطة به و كررها الصدى بضخامة و مدى .. من العالم ابن العالمة الذي فعل هذا بي ؟؟؟؟ .

ساد صمت رهيب لف المكان لم يختلط به سوى صفير الرياح .. فجأة .. أتاه صوت ناعم هادئ حاد لم يستطع تحديد مصدره و لا بعده عنه .. أتريد الحقيقة أيها الحيوان ؟؟ أمثلك يعرف حقيقة و يبحث عن حقيقة ؟؟؟!!! .

حاول معرفة مصدر الصوت و تحديد مكانه لكنه لم يهتدي إلى ذلك سبيلاً فصرخ مرة أخرى بغضب و شراسة .. أين أنت أيها العالم .. اخرج يا ابن العالمة .. إن كنت رجل فاخرج و واجهني .

جاءه الصوت مرة أخرى هادئاً ناعماً .. أتبحث عن الحقيقة بالشيكولاتة يا حيواااااان ؟؟؟!!! بالكروش المنتفخة و الفساد و نية السوء ؟؟؟!!! أتريد أن تعرف الحقيقة بالمتعة يا حيواااااننننن ؟؟؟!!! تريدها امرأة للشهوة و النكاح أيها العرص ابن العرص ؟؟؟!!! ألا تعلم أن للحقيقة رب يحميها و جنود يحرسونها .. جنود لا يعلمهم إلا ربها و خالقها و بارئها ؟؟؟!!! اتفووووووه لعنة الله عليك .

صاح الرجل بهستيريا و الهتياج شديدين .. اخرج و واجهني أيها العاهر .. أرني وجهك .. إن كنت رجلاً أرني أين أنت أيها الجبان .

فجأة سقطت أمامه صنوبرة كبيرة و أتاه الصوت من جديد .. هذه قنبلة سوف تنفجر بك بعد ثواني .. فاهرب و اطلق ساقيك للريح قبل أن تمزقك أشلاء .. هنالك حمار بانتظارك أسفل الوادي .. يعرف طريقه إلى منزلك .. اركب عليه و عد أدراجك من حيث أتيت .. أنا أعرف أنك منهك لذلك أشفقتُ عليك و هيأتُ لك هذا الحمار ليقودك إلى بيتك .

كان تعب الرجل و خوفه قد منعاه من إدراك أن هذه مجرد صنوبرة عادية لا تنفجر ، فاطلق ساقيه للريح بالرغم من تعبه نحو أسفل الوادي حتى وجد الحمار بالفعل .. صعد عليه بتعب و ألقى بجسده المنهك على ظهره فانطلق الحمار من تلقاء نفسه إلى منزل الرجل .

نظر الرجل إلى الحمار و هو يمشي بثبات ثم مسّد له رقبته و داعب له أذنيه و قال بابتسامة .. آآآآآه ما أحلى الحقيقة على ظهر حمار .

- انتهى -

القارئ المحترم .. إذا كنت قد قرأت كتابي هذا و أعجبك ، و أحببت أن تساهم بمبلغ ما .. أنت تراه مناسباً، يمكنك مشكوراً التحويل إلى حسابي البنكي التالي مع ذكر أسباب التحويل (نزار يوسف) .

INTERMEDIARY BANK : BYBLOS BANK SAL BEIRUT LEBANON
SWIFT CODE : BYBALBBX
BENEFICIARY BANK : BYBLOS BANK SA SYRIA
SWIFT CODE : BYBASYDA
BENEFICIARY A/C NO : 2200405395001 165089
BENEFICIARY NAME : NIZAR SLEIMAN YOUSEF
REASON OF PAYMENT : (needful)

العنوان أعلاه للتحويل من خارج سورية ، أما للتحويل من داخل سورية ، يُكتفى فقط برقم الحساب
ملاحظة : لا يوجد حساب آخر .

نزار يوسف كاتب و باحث من سورية

له الكتب و المؤلفات التالية ..

- الزمن العربي الرديء (دراسة و بحث) .

- الحكمة بين الإله و السلطان (دراسة و بحث) .

- الوصاية الفكرية (دراسة و بحث) .

- هوية الفكر العربي المعاصر (دراسة و بحث) .

- المنطق الثاني (دراسة و بحث) .

- من وحي الواقع (مجموعة مقالات) .

- من رؤياي في الحياة (آراء و أفكار و خواطر) .

- أنا و الملاك (رواية طويلة) .

يكتب في موقع إيلاف على الرابط التالي

www.nizar.elaphblog.com